5me Année, No . 234

Lundi - 27 - 12 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الاعلانات

يتفق عليها مع الادارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

السنة الخامسة — « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٤ شوال سنة ١٣٥٦ — ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٧ » — العــــدد ٢٣٤

الفهـــرس

رجل سعيــــد

وعدتك أن أقص عليك حديث الرجل السعيد بخلقه ودينه عسى أن تجد فيــه ما يبرد غيظك ويرد حلمك ويقر بالك. وهأنذا اليوم أسوق إليك هذا الحديث على سرده :

دخل علىّ هذا الرجل وأنا مكب على عمل دقيق حافز ، فلم يسعنى حين رأيت ما عليه من سَمْت الوقار وسيما الخير إلا أن أدع ما فى يدى وأفرغ له

— نعم يا سيدى

— أنا رجل من أهل ... قرأت ما كتب فى الرسالة عن الأخلاق ونكولها أمام الغرائز الوصولية فى الإنسان ، فساءنى وأَيم الله أن تشتبه المعالم حتى يضل الهادى ، وتعترك الظنون حتى يشك المؤمن . وليس لى قلم أضعه بين هذه الأقلام فيــدلها على موضع الحق أو يعينها على مقطع الحكم ، فآثرت أن أشخص إليك لأكون أمامك مقالاً حياً يقرر ، ودليلاً ناطقاً يؤيد

وفى الحق أن الرجل كان فى بِزّته العربية المهندمة ، ولهجته الطبيعية المتزنة ، كأنما ينطق عن وحى الفضيلة العليا . فقلت له : أتظن أن الفاضل ينجح بمحض فضله فى هذا العصر الآلى الأصم ؟

فقال : لا أظن ، وإنما أعتقد ؛ ولا أنكر مع هذا الاعتقاد أن الفضيلة وعرة الطريق ، وأن الخير صعب المرتقى . وفى قول الرسول الكريم : «حفت الجنة بالمكاره» ، و «القابض على دينه

كالقابض على الجمر » ما يصدق ذلك . ولكن الفضائل تعليم وتعويد ورياضة ؛ فإذا أوفَ[1] غرسها في النشء ، وضعف أثرها في المجتمع ، دل ذلك على فشل التربية لا على فشل الفضيلة .

أنا رجل واسع الثراء سابغ النعمة ؛ وقد جمعت مالي الوفر من ذلك الطريق السوي الذي ألزمني إياه أبي منذ الصغر ؛ فليس في نصابه قرش زائف ولا متر مغتصب . ورثت عن أبي الدين الصحيح على أنه دستور الدنيا ، والخلق الصريح على أنه جوهر الدين ؛ ثم زاولت التجارة بالصدق والصبر فاستغنيت ، واقتنيت العمائر والضياع فأثريت ، وأديت الصلاة فوصلت ما بيني وبين الله ، وآتيت الزكاة فأصلحت ما بيني وبين الناس . ثم أحصنت نفسي بالزواج الباكر فوُهبتُ البنين ، وعصمت شهوتي من المُتَع الحرام فرزقتُ العافية ، وطهرت قلبي من الطمع الحاسد والخصام الحاقد فأوتيتُ السكينة . ثم جهلت البنك فجهلت الربا والدَّين ، وأنكرت المحكمة فأنكرت العداوة والظلم ، ووضعت فضل مالي في أيدي ذوي الخلق من التجار يحفظونه لي ويستثمرونه لهم ، وجعلت أرضي في ذوي الدين من الزراع يزرعونها علي ويستغلونها عليهم ، ومسست بالمواساة والرحمة قلوب البائسين حولي فسللت منها الضغينة ؛ ثم كان لي في كل مَبَرَّة سهم ، وفي كل مستشفى سرير ، وفي كل مشروع وطني يد . فأنا أمشي في الناس ملحوظ الشهادة محفوظ الغيب ، لا تمتد يد إلى مالي لأنه مبذول للسائل والمحروم ، ولا ينبسط لسان في عرضي لأن جاهي موقوف على العاطل والمظلوم ، ولا يأتمر أحد بحياتي لأن وجودي أمان للشقي من البؤس والجريمة

أما سعادتي في نفسي وولدي فهي أعظم وأتم من سعادتي في عملي ومالي : أجدني كنف الرجاء لكثير من الأسر الفقيرة ، ومصدر العزاء لطائفة من القلوب الكسيرة ؛ وأرى في كل نظرة وفي كل بسمة وفي كل كلمة معاني لا تتناهى من العرفان والحنان والشكر ، فتعظم سعادتي في نفسي ، وتجمل دنياي في عيني ، ويغمرني شعور من عزة المؤمن وزهو الخاشع ، لأن حياتي لها هذا الخطر في حياة بعض الناس . ثم أنظر إلى بَنِيَّ الثمانية فأرى في وجوههم صورتي ، وفي صدورهم محبتي ، وفي شعورهم عاطفتي ، وفي ميولهم رضاي ، وفي آمالهم مناي ، فأقبل يدي ظاهراً وباطناً وأقول لنفسي : احمدي الله واشكريه فإن عَلِيًّا لن يموت ، وإن ثراءه لن يبيد ، وإن بناءه لن يتقوض !

ذلك كله يا سيدي بفضل الخلق . فإذا كان قد تهيأ لمثلي على جهله بقواعد المدنية وضروريات العلوم أن يجمع بمعونة الله وحده هذه الثروة الضخمة وليس له رأس مال من إرث ولا فيض رزق من حكومة ، وأن ينال هذا الجاه العريض وليس له نسب عريق في أسرة ولا سبب وثيق إلى سلطان ، وأن يخلق من حوله هذا النعيم المقيم فيغرق فيه أهله وعشيرته وبيئته ، وأن يرفع بناء الأخلاق الفاضلة في بنيه بالتربية وفي أهله بالقدوة وفي مواطنيه بالتقليد ، فكيف لا يستطيع معلمو المدرسة ووعاظ المسجد ومشرعو البرلمان أن يخلقوا في كل مكان هذه البيئة وتلك الجنة فيصلح المجتمع ويسعد العالم ؟

فقلت له وقد أعجبني عقله وأمتعني حديثه : يا سيدي ، إن من سعادتك وسعادة الناس بك أنك صاحب عمل لا صاحب علم ، ورجل عزيمة لا رجل رأي . ولو كنت من كهنة العلم لصعدت إلى قدس الأقداس وظللت تقرأ الفلسفة والأخلاق لرياضة العقل أو للذة المعرفة أو لشهوة الجدل ، ثم رميت الناس من عليا سمائك بالآراء المتعارضة والأحكام المتناقضة لتصطرع في المطابع حيناً ثم تموت في الكتب

لا يزال المربون يا سيدي يجادلون في أغراض التربية ويجربون نظرياتها المختلفة في حقولهم الخاصة . فليت شعري وشعرك أيُتاح لهؤلاء في دهر من الدهور أن يقبضوا على أعنة الأمم ويتولوا القيادة في ركب الحياة !؟ ادع الله للناس أن يلهمهم من الحق ما ألهمك ، وأن يعلمهم من قواعد الخير ما علمك !

* * *

قال صاحبي الثائر وقد شبا وجهه بشيء من الإيمان والاطمئنان : وهل تستطيع أن تعد كثيراً من الناس على غرار هذا الرجل ؟ فقلت له : يا صاحبي ! ليست المسألة مسألة إحصاء وعد ، إنما هي مسألة إمكان وواقع . ومتى ثبت أن الأخلاق الفاضلة استطاعت أن تصنع من هذا الرجل هذا المثال ، فلِمَ لا تستطيع أن تصنع على غراره ملايين من الرجال ؟

احمد حسن الزيات

(١) أوف الزرع أصابته آفة

هل الحرب ضرورة؟

للأستاذ عباس محمود العقاد

— ٢ —

ظهور المذهب فى الأمة شىء، وشيوع العمل بذلك المذهب شىء آخر

ولكن ظهور المذاهب مع هذا لا يخلو من دلالة قوية على طبيعة الأمة ومعدن أخلاقها وطرائق معيشتها ، ولو لم يعمل به الناس أو يتقيدوا بأحكامه فى الحياة اليومية

فالجنود والفلاسفة ورجال المال وأصحاب التجارات الواسعة موجودون فى بلاد الحضارة كافة ، وربما تساوت « النسبة » بينهم فى العدد والقوة والجاه ، ولكن مما لا شك فيه أن البلد الذى « مثله الأعلى » رجل الحرب غير البلد الذى يتخذ له « مثلاً أعلى » من الرجل الغنى أو من الرجل الحكيم أو من الرجل الزاهد . فإذا ظهر فى الصين حكيم يوصى الناس بالوداعة وحب السلم وكراهة القتال فليس بالمعقول ولا بالميسور أن يشيع العمل بوصاته حتى يمتنع ظهور الجند ووقوع القتال بين تلاميذه ومريديه ؛ ولكن ليس بالمعقول كذلك أن نسوى بين هذا البلد وغيره من البلدان التى يتمنى حكماؤها شيوع الحرب أو شيوع الثروة أو شيوع الزهد والرهبانية ، إذ يكفى أن يتمنى الإنسان شيئاً ليكون مختلفاً فى تفكيره وشعوره ممن لا يتمنونه وقد يتمنون نقيضه ، ولا يسوى بينهم بعد ذلك أنهم يشتركون فى عمل واحد يعمله بعضهم مضطراً مسوقاً إليه ، ويعمله بعضهم مختاراً شديد الرغبة فيه

لقد أوصى حكماء الصين بالسلام وبغضوا الناس فى الحرب وفيمن يجعلها صناعته وهمه وهجيراه ، فليس معنى هذا أن حرباً لم تقع فى الصين وأن حكيماً لم يظهر بين أهلها يحثهم على الكفاح كلما دعت إليه حاجة أو قضت به مصلحة سياسية ؛ فقد ظهر من الصينيين فلاسفة بالغوا فى تمجيد الحرب كما يبالغ فيها اليوم فلاسفة المذاهب « الفاشية » أو مذاهب العسكريين . وقال أحدهم وهو « كنج سوف يانج » : « إن الأمة التى تجتمع فيها القوة حقيقة أن ترهب وتصبح عظيمة البأس والمهابة ؛ أما الأمة التى تلهو بالكلام فهى وشيكة التمزيق . ولو أن ألفاً اشتغلوا بالزرع والحرب وواحداً بينهم اشتغل بنظم القصيد ورواية التاريخ وتنميق الأحاديث لأفسد عليهم أعمالهم أجمعين ... » إلى أمثال هذا الكلام الذى يخيل إلى قارئه أنه من عربدة المسكرات لا من نصائح الوعاظ والحكماء

ظهر فى الصين من قال بهذا وظهر فيها من قال بغيره وهو الفريق الغالب والقدوة العامة المرموقة من الأكثرين ، وربما كان ظهور الحكماء المسالمين وانتشار حكمتهم هو الباعث إلى ظهور المخالفين لهم وإغراقهم فى دعوة الحرب وآداب القتال ، كما يصيح الإنسان ويبالغ فى الصياح كلما أحس أنه ضائع الصوت والصدى محتاج إلى جذب الأسماع ولفت الأنظار ؛ وإنما عبرة هذا جميعه أن النيات لها دلالة قوية وليست الدلالة كلها للأعمال والوقائع ؛ فإذا رأينا أناساً ينوون السلم ويحاربون فليس بالصحيح أن نسوى بينهم وبين من ينوون الحرب ويحاربون : هم مختلفون وإن تشابهوا فى عمل واحد ، ونحن رابحون إذا أشعنا دعوة السلم وإن لم يتبعها على الأثر شيوع السلم وبطلان القتال

ومن الأشياء التى لها دلالتها فى العصر الحديث كثرة الناعين على الحروب بين الأمم الحرة ، وكثرة المنكرين لمظاهر الزهو التى كانت تحيط فيما مضى برجال الفتوح والغزوات ، فسيكون لذلك كله أثره كما كانت له دلالته وكانت له دواعيه . وحسبنا أن العمل فى هذه الوجهة ليس بالعبث . ولا بالعقيم ، بل حسبنا أنه واجب محمود ، بل حسبنا أنه ليس بذميم ، ليكون ذلك من أسباب المضى فيه والإقبال عليه

يقال إن الضراوة ليست من طبيعة الوحش فى حالة التأبد والسهولة . ويقول هدسون : إن البوما — وهو من أشد السباع الأمريكية — لا يهجم على أحد إلا وهو مدافع عن حياته . ويقول كومستوك : إن الثعابين والدببة وغيرها من السباع لا تتعلم الضراوة إلا حين يظهر بينها الإنسان ويوغل بينها فى الصيد والاعتداء والتحرش والإيذاء . وحسبنا من ذلك أن الضراوة ليست أصلاً فى الخليقة حتى بين السباع والعجماوات ، وأنها ضرورة وليست بشهوة مطلوبة ، وأنها تحول إذا امتنعت الضرورة وتغيرت الأسباب . فلا نزعم كما يزعم الفاشيون أن تربية الانسان على الحرب فضيلة متى ثبت أن الحرب رذيلة ليس عنها محيد : ذلك

خطأ لا ريب فيه ، لأنه لم يثبت أولاً أن الحرب طبيعة في الأحياء ، ولن يثبت بعد ذلك أن الرذيلة تصبح فضيلة مرغوباً فيها متى علمنا أنها عسيرة الاجتناب

ولست أكبر من شأن الدلالة التي أشار إليها الكاتب « الدوس هكسلي » صاحب كتاب الغايات والوسائل حين قال : إن الإنسان في دور الفطرة لم يكن يعرف الحرب على نظامها المعروف بين أصحاب الحضارة ، فإن الرجل الذي يحارب ليس بأبشع ولا أقسى من الرجل الذي يقتل بعد تدبير وإصرار ؛ ولعله أقل بشاعة وقسوة لأنه يقتل وهو مهتاج مستثار بما يثير الجنود في حومة الصراع . إلا أنني أومن بما تواترت به الآراء عن قلة الضراوة بين الأحياء التي تعيش على الفطرة في حالة التبدي والسهولة ، فإن ذلك معناه أن الحرب آفة قابلة للعلاج في زمن من الأزمان ، وأنها متى بطلت أسبابها الأولى ووضحت أضرارها الجسام وكثر المصابون بتلك الأضرار خفيت من عالم الإنسان المتحضر كما خفيت من عالم الإنسان الفطري أو من عالم الحيوان

وربما لاح عجيباً للمصريين أن يعلموا أنهم أول أمة في العالم قد اخترعت « فن الحرب » على النظام المعروف ؛ فقبل الحضارة المصرية لم تكن حرب منظمة ولا تعبئة مدروسة ولا حركات يتعلمها القادة كما يتعلم صناعته كل ذي صناعة محفوظة الأصول والقواعد ؛ وإنما كانت هناك مشاجرات يدخل فيها استخدام السلاح ولا تعتمد في فنون التعبئة على نظام سابق . فما أعجب أن يكون المصريون الوادعون هم أسبق الأمم إلى اختراع فن القتال ! وما أعظم ما في ذلك من دواعي التفاؤل عند أناس ودواعي التشاؤم عند آخرين ! فأما التفاؤل فذاك لأن هذه العجيبة دليل على أن الحرب ضرورة معيشة في بعض حالات الحضارة الأولى ، وليست بشهوة مقرونة بالوحشية التي تناقض الوداعة والمسالمة ؛ وأما التشاؤم فذاك أن يقول القائل : هذا شأن الوادعين فكيف بالضراة المقتحمين ؟!

ومع هذا نقول ويقول هكسلي : إن علاج الحرب نفسي وليس باقتصادي على زعم الاشتراكيين أصحاب التفسير المادي للتاريخ ، وإن المعيشة تابعة لحالة النفس قبل أن تكون الحالة النفسية تابعة للمعيشة . فهذب الرجل وأصلح من ذوقه وتفكيره ينتقل من منزل إلى منزل ومن حي إلى حي ومن كساد إلى كساد ومن طعام إلى طعام ، وهكذا يكون العلاج لآفات الأمم في هذا الزمان

وقد وعدنا في المقال السابق أن نلم بأسباب الحرب الاقتصادية كما يراها مؤلف الكتاب . فأهمها وأسبقها تاريخاً في نظره هو التماس المرعى الخصيب وانتزاعه من أيدي مالكيه ؛ ثم تبدل هذا الباعث في زماننا فحل التماس الأسواق محل التماس المرعى الخصيب ، وأدى التماس الأسواق إلى إنشاء المصانع في البلاد المستعمرة فقام النزاع بين المصالح في أيدي الأقوياء والضعفاء على السواء

ومن أهم أسباب الحرب الاقتصادية معامل السلاح ونفوذ المنتفعين بترويج الأسلحة بين المتحاربين . وليس من العلاج الناجع في رأي هكسلي أن تستولي الحكومات على هذه المعامل فتبطل الدعاية للحروب ، لأن الحكومات تحتاج إلى المال كما تحتاج إليه الشركات ؛ ويزيد على المشكلة مشكلة جديدة وهي أن الحكومات أقوى على الجملة من الشركات

ويمضي الكاتب في سرد أمثال هذه الأسباب مجتهداً في إبراز غرضه الأصيل من كتابة الكتاب وهو تغليب العوامل النفسية على العوامل الاقتصادية وتوجيه الأذهان إلى ابتغاء العلاج الأدبي مع العلاج الاقتصادي في وقت واحد . وخلاصة العلاج الأدبي ترجع بنا إلى مذهب كمذهب أهل الهند أو مذهب المتصوفة القائلين بأن عظمة الإنسان على مقدار استغنائه عن قيود اللذات والشهوات وقيود الأوجاع والهموم ، وأن المثل الأعلى في التربية هو الترفع عن الحاجات وليس الخضوع لها والانقياد لغوايتها . أما خلاصة العلاج الاقتصادي فهي العناية بالوسائل الزراعية التي يجربها الدكتور ولكوكس صاحب كتاب « الأمم تعيش على مواردها الداخلية » ؛ وفحواها أن الأمة بالغاً مابلغ عدد سكانها قادرة على استخراج طعامها من أرضها إذا هي عمدت إلى تطبيق بعض الأساليب العلمية التي حققها بالتجربة المشهودة . ويتوقع هكسلي أن طريقة ولكوكس ومثلها طريقة الأستاذ جريك في كليفورنيا ستحدثان في العالم انقلاباً شاملاً لا يذكر إلى جانبه انقلاب الصناعة في القرنين الثامن عشر

ليلى المريضـــة بالعراق

للدكتور زكى مبارك

— ٣ —

... وفى صباح يوم السبت توجهت إلى بهو أمانة العاصمة لأؤدى واجب التحية ، تحية العيد إلى وزراء الدولة . وقد ظننى فخامة الرئيس عراقياً ، لأنى كنت بالسدارة ، فسرنى ذلك . وكانت فرصة طيبة عيدت فيها على رجال كنت أحب أن أذهب إليهم فى منازلهم ؛ وراقنى أن يعرف العراقيون مكاناً عاماً يلتقون فيه يوم العيد ، وهى عادة حسنة كنت دعوت إليها فى الرسالة التى قدمتها للمباراة الأدبية الرسمية : رسالة (اللغة والدين والتقاليد)

وتلفتّ فرأيت الدكتور حسين كامل يشير إلىّ ، وما هى إلا لحظة حتى كانت يدٌ كريمة تصافحنى وتقول : أنا الدكتور شوكة الزهاوي رئيس الجمعية الطبية العراقية ، وقد سألت عنك مرات لأن اسمك يرد كثيراً فى المخابرات التى تجرى بيننا وبين الجمعية الطبية المصرية . والحمد لله على أن اهتديت إليك بعد التشوف والاشتياق

ثم استطرد فقال : إيش لون ليلى ؟ (واللون فى عرف العراقيين هو الحال فى عرف المصريين)

فقلت وأنا أبتسم : ستعرف ذلك يوم ألقى بحثى فى المؤتمر الطبى عن ليلى المريضة بالعراق

فقال : عجّـل بدفع الاشتراك ليحفظ لك مكانك بين الخطباء .
فأخرجت ديناراً لم يكن معى سواه وقلت : إليك الدينار فى سبيل ليلى ! والله المستعان

والظاهر أنه لم يعرف شيئاً عن الرسالة التى كلفت الأستاذ الزيات تبليغها إلى الجمعية الطبية المصرية (ولا تغضب يا صديقى الزيات من كلمة تكليف ، فكذلك قلت ، وما أكذب عليك)

***

وفى المساء ذهبت إلى نادى المعارف واشتركت فى استقبال الكشافة السورية ، وألقيت خطبة تناسب المقام . وما كادت تنقضى الحفلة حتى عدوت إلى منزلى لأنتظر وصيفة ليلى

وجاءت الساعة العاشرة ولم يحضر أحد ، فقلت فى نفسى : هذا جزاء الفضول !

ثم تذكرت أنى أؤدى خدمة وجدانية سيذكرها التاريخ فانشرح صدرى بعض الانشراح وهدأت ، ثم أخذت أقلب أوراقى فى سكون واطمئنان

وبعد نصف ساعة أحسست يداً رفيقة تطرق الباب ، فخففت إليه فى وقار مصنوع وفتحته بدون أن أسأل عن أسماء الزائرين . وما الحاجة إلى ذلك وأنا أعرف جوهر الزيارة فى نصف الليل ؟ وليتها كانت زيارة تذكر بالأيام الخوالى حين كنت أدرس الطب فى باريس ، وحين كنت أترك الباب بلا رتاج لتدخل الصغيرة المحبوبة حين تشاء

إنها زيارة جرداء ستنقضى فى السؤال والجواب ، وأنا اليوم طبيب مسئول عن رعاية الحرمات

دخلت جميلة أولاً ، وتبعتها وصيفة ليلى . دخلتا ملفوفتين ، مع أن المرأة جميلة جاوزت الستين ؛ وشعرت بشىء من الخجل للفقر البادى فى غرفة الاستقبال ، ثم تماسكتُ حين تذكرت أن هاتين المرأتين تفهمان بلاريب أنى طبيب غريب وأن الوقت لم يتسع لتأثيث العيادة والبيت

— يا جميلة ، ما اسم هذه الوصيفة ؟

— إسمها ظمياء ، ولكن ما ذنبى عنـدك يا دكتور حتى تغير اسمى ؟

فقلت : لن أذكر اسمك الصحيح فى علاج ليلى ، لأنى لا أريد

والتاسع عشر ، إلا كما تذكر التوافه واللمم فى معرض الأخبار الجسام

وجميع هذه الخلاصات إنما هى فهرس للعناوين يشوق من يعنيه الأمر إلى المراجعة والاستقصاء . فإذا راجع واستقصى علم أن الجزاء أكبر من العناء ، وأن من مباحث الزراعيين فى عصرنا هذا ما يلذ القارئ كما يلذه البحث فى الأدب والفن والفلسفة وأصول العقائد وقوانين الاجتماع ، فلا سبيل إلى علاج مالى يعصف بآفات القرون الأولى ويحيط بعواملها الفكرية والشعورية مالم يكن مصحوباً بدراسة هذه الشؤون

عباس محمود العقاد

أن تغتنمي الفرصة فتصبحي حَكَماً على حسابها يا حيزبون !

وأخذت المرأة فى اللجاجة ولكنى انصرفت والتفت إلى ظمياء

— إيش لون ليلى ؟

— بخير ، يا دكتور ، وقد سرتْ فى روحها البشاشة منذ الوقت الذى رأتك فيه ، ولكن فى نفسها منك شئ

فقلت وأنا منزعج : وما هو ذلك الشيء ؟ أعوذ بالله من كيد الشياطين !

فأجابت : كتب إليها كثير من أدباء مصر يؤكدون أنك أديب ولست بطبيب

فقلت : هؤلاء دساسون ، وقد آذونى قبل ذلك أبلغ إيذاء ، فقد كنت خطبت فتاة فى باريس وطاب لى معها العيش ، إلى أن تدخل المفسدون وحدثوها أنى متأهل ، وأن لى خمسة أبناء . وأنا يا آنستى رجل محسود لا أخطو خطوة إلا وحولى رقباء لا ضمائر لهم ولا قلوب

فقالت : ولكن ليلى رأت فى صدور كتبك أنك دكتور فى الآداب

فقلت : هذا تواضع منى ، لأن الطبيب الحق لا يقول إنه طبيب ، ومع ذلك فلا بأس من إخبارك بكل الحقيقة لتبلغى ليلى فتطمئن . عندي يا آنستى ثلاث دكتوراهات : الأولى فى الآداب ، والثانية فى الطب ، والثالثة فى القانون

فتهلل وجه ظمياء وقالت : الآن فهمت ما ينشر فى الجرائد من أنك تلقى محاضرات فى كلية الحقوق

فقلت : هو ذلك يا آنستى . وستقرئين فى الجرائد بعد حين أنى ألقى محاضرات فى كلية الطب !

والآن ندخل فى صحيح الغرض من هذه الزيارة الليلية ، ولندرس الموضوع من جميع الأطراف ، لأنى لا أستريح إلى دعوتكما لزيارتى مرة ثانية ، فإن العيون تترصدنى من كل جانب ، وسمعة الطبيب هى كل ما يملك ، وأنت فى الحق فتاة حسناء وأخشى أن تحيط بى من أجلك الظنون

فتنهدت وقالت : العفو يا دكتور ! إن مرض ليلى هدّنى ولم يُبق منى على شيء

فقلت وقد غاظنى أن تحسبنى أتغزل : اسمى ، ليس الوقت وقت دلال ، أنت هنا فى خدمة الواجب ، أجيبى على الأسئلة بصدق وصراحة ، واحذرى عواقب المداورة فى الجواب

— هل ترين ليلى امرأة مصونة ؟ هل يحيط بسمعتها قليل من الشبهات ؟

— ليلى مصونة كل الصيانة يا دكتور ، وبالرغم من كثرة الحواسد لم تستطع امرأة أثيمة أن تقول فى حقها كلمة سوء ، فهى مثال الطهر فى بغداد ، وحديثها كالعطر فى جميع أرجاء العراق

— وكم سنّ ليلى الآن ؟ وكيف كان ماضيها فى الحياة الزوجية ؟

— هى فى حدود الأربعين ، ولا تزال عذراء

« وعندئذ دونت فى مذكرتى أن المرأة التى تصل إلى سنّ الأربعين وليس لها زوج ولا أطفال معرضة لكثير من الأمراض ، وهذه أهم نقطة أعرضها للدرس فى المؤتمر الطبى »

ثم رفعت بصرى إلى ظمياء وقلت : ولكن كيف اتفق أن تعيش ليلى كل هذا العمر عذراء ؟

فتلجلجت الفتاة ثم لاذت بالصمت ، فنهرتها بعنف ، فأجابت وما تكاد تبين :

— كانت تحب الضابط عبد الحسيب

— ومن هو الضابط عبد الحسيب ؟

— فتى كان فى الجيش العراقى وأبوه من مصر وأمه من لبنان

« للحديث بقية » زكى مبارك

ضبط النفس

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

علمتنى الحياة ضبط النفس ، والحياة مع الأسف مدرسة ولكنها فيما يبدو لى عقيمة ، فان الدروس فيها لا تنتهى ، ولا يكاد المرء يظن أنه حذق بعضها وآن له أن ينتفع بما تعلم منها حتى تسلمه الأقدار إلى العفاء ! ففيم كان طول التلمذ هذا ؟ وما خيره إذا كان العمر ينتهى به ؟ وما الفرق إذن بين الجهل والعلم والطيش والحكمة ؟ ولماذا يعنى المرء نفسه بالنظر والتدبر والتحصيل ؟ ؟

قلت هذا مرة لصديق انجليزى فلم يستغربه ، لأنه لا جديد فيه ، ولكنه سألنى : « أيشق عليك هذا ؟ » فاحتجت أن أدير عينى فى نفسى لأتبين ، فما أدرى والله أهو يشق أم يهون . ثم قلت له : « لا أظن .. فانى حائر .. أجهل ما تنطوى عليه نفسى .. ولكنى أريد أن أفهم وأن أهتدى إلى الحكمة ... فانى أرانى أتعب وأكد فى التحصيل والنظر ... وسأقضى حياتى كلها فى هذا ، ثم يجىء يوم فأطوى ... ويطوى معى كل ما تعبت فى إفادته ولم أنفع به أحداً . ولو أنى كنت أموت ويبقى ما أفدت لاختلف الحال ، ولكن عقلى يبطل ، وإحساسى ينعدم ، فكأنى ما عشت ولا كنت . فما هذا الموت الذى تموت به كل المعانى الحاصلة ، والحكمة المستفادة ، والمعارف والاحساسات ؟ هذا هو الذى يثقل علىّ ، وإن كان لا مفر منه . وفى سؤالك ما يشعر أنك لا تستثقله كما أفعل ، وهذا راجع إلى طبيعة المصرى ، فانها غير طبيعتكم . نحن المصريين يختلط فى نفوسنا الشعور بالحياة بالشعور بالموت ، وتفكيرنا فى هذه بتفكيرنا فى ذاك . حياتنا كلها وآثار آبائنا الأقربين والأقدمين تثبت ذلك ، ولكنكم تفكرون فى الموت كأنه شىء مستقل عن الحياة ، يعترضها ولكنه ليس منها ، هو عندكم طارىء غريب ... أو قل إنكم لا تحسون به كاحساسنا نحن ... »

وقصصت عليه قصة تجلو فرق ما بيننا وبين الانجليز فى هذا ، وتلك أن سيدة استأجرتُ غرفة فى بيتها فى لندرة روت لى يوماً أن جارها توفى أبوه ، وقالت إنه الآن مسجى على سريره فى غرفته ينتظر يوم الدفن ، وكان الابن يحب فتاة ويشتهى أن تكون زوجته ، وقد تودد إليها وأطلعها على ما يجن لها من الحب وخطبها فشكرته وأسفت واعتذرت ، وكان له صديق يحب الفتاة أيضاً وينافسه عليها ، وقد ظفر منها بكلمة القبول فى نفس اليوم الذى مات فيه أبو صاحبه ، فزاره ليعزيه ، ثم لم يسعه إلا أن يفضى إليه بما يملأ قلبه من السرور وأن يبلغه أن الفتاة رضيت أن تكون زوجته ، فاحتمل الرجل الصدمتين : صدمة الموت وصدمة الحرمان ، وتناول زجاجة الويسكى وناول صديقه كأساً وتناول هو أخرى ، قالت السيدة : وقد ظلا يشربان إلى الهزيع الثانى من الليل . وقد كانت تروى لى هذه القصة وهى معجبة بسعة صدر ذلك المفجوع فى أبيه وفى حبه ، وعظم ضبطه لنفسه ؛ ولم يكن إعجابها به لأنه استقبل صديقه وراح يسامره وأبوه الميت لا يزال فى البيت فان الموت مألوف لا جديد فيه ، ولا خير من تقطيع القلب حسرات من جرائه ، وإنما كان الاعجاب لأنه احتمل الهزيمة فى ميدان الحب على هذا النحو الكريم

مثل هذا لا يمكن أن يحدث فى مصر . ولو أن اثنين تنافسا على فتاة ، لما كان من سلامة الذوق أن يذهب الفائز بها إلى مزاحمه ليطلب منه تهنئته بذلك ومشاركته فى سروره ، فان هذا فى عرفنا أشبه بأن يكون شماتة ومكايدة ، فكيف إذا كان أحدهما أبوه ملفوف فى أكفانه ينتظر أن يحمل إلى قبره ؟

وأكثر ما نراه من مظاهر الحزن أو الجزع عندنا من التكلف ولا سيما بين النساء . ولكن لماذا يتكلف المصريون هذا ويحرصون على إبدائه ؟ أترى تكلفهم هذا يرجع الأمر فيه إلى الجهل أم إلى شعور بشىء فى الطباع ؟ لا أدرى ، ولكن الذى أدريه أن التجلد يكون مما يتحدث به الناس ويلهجون بذكره ، كأنما الأصل هو الجزع . وإنى لأذكر أنى تظاهرت بالاطمئنان ، وتكلفت الابتسام لما ماتت أمى ، بين يدى ، وكنت أخادع أخى وأخادع سيدات كثيرات كن فى تلك الساعة فى البيت ، وقد كرهت أن ينفجرن بالصراخ والعويل واللطم ، وأمى بينهن فى ثيابها التى كانت تلبسها لما حضرتها الوفاة ، فلما عرف أخى ما دبرت ساءه هذا منى وكبر عليه أنى زعمت له أنها نائمة وهى ميتة ، وأنى تبسمت وكان حقى أن أبكى ، وبقى أياماً لا يكلمنى ، وإذا لقينى ترقرقت الدموع فى عينيه ؛ ولا أدرى ماذا كان يجديه أن يعلم أن روحها فاضت قبل ساعة أو بعد ساعة ، وأحسب هذا من الحزن ، ولم أكن دونه حزناً ، بل لعلى أعمق منه حزناً عليها ، ولكنه كان علىّ مالم يكن عليه من الواجبات فى تلك الساعة

فاحتجت إلى خنق شعورى حتى أفرغ من الأمر على ما أحب

وكانت لى طفلة صغيرة ماتت ، فاحتلت حتى استطعت أن أواريها التراب وأمها تعتقد أن بنتها لاتزال على قيد الحياة ، وكانت الأم مريضة ، وقد أوصاها الطبيب بالتزام السكون واجتناب الحركة والانفعال ، فلم يسعنى أن أفعل إلا مافعلت ، وكان هناك عامل آخر غير الموت يزيد فى ألمى ، وذلك أنى موقن أن الإهمال هو الذى جر الموت ، والآجال بيد الله ، ولكن لكل شىء سبباً ، وكانت البنت قد أصيبت بالحصبة ، فاحتجنا — لمرض أمها — أن نكل العناية بها إلى خادمة كنا نظنها حاذقة ذكية ، فأصيبت البنت بالتهاب رئوى قضى عليها وأودى بها ؛ غير أن ما كان كان ، ولا حيلة فيه لإنسان . فكظمت غيظى ، وكتمت ألمى ، وتشددت لأعين الأم المسكينة على الصبر . وجاءنى بعض الأصدقاء يعزوننى فى المساء فألفونى أبتسم وأضحك وأمزح فتعجبوا ، ولا محل للعجب فى الحقيقة ، وأحسب الأمر قد صار عندى عادة وما أظن بي إلا أنى أصبحت « كالحانوتى » والمرء مما تعود

ولم أكن هكذا فى صغرى . وإنى لأستحيى أن أقول كيف كنت أحمق طياشاً قليل الصبر سريع التأثر ، ولو شئت لقصصت على القارىء مائة حكاية وحكاية ، ولكنى لا أنوى أن أفضح نفسى ، وقد صرت يهون على كل شىء إلا أن يرانى الناس لا أملك زمام نفسى ، ولا أستطيع ضبطها وكبحها . ومن العسير أن أعرف البواعث التى أغرتنى بهذا الكبح وزينته لى حتى أصبحت لا يسخطنى شىء كأن يتفلت زمام النفس من يدى . وفى وسعى أن أقول فى هذه البواعث ، ولكنى لا أحسب أنى قادر على الاحاطة بها أو مهتد إلى الخفي منها . وما ذكرت الموت إلا لأنه فى مصر مما يغتفر الجزع حياله ، وإن كان المرء يلاقى فى حياته ما هو شر منه وأدهى ، وقانا الله السوء ولطف بنا . ولم تهن على الحيلة ، ولكني مللت طول الحيرة التى يورثنيها النظر فى وجوهها وأضجرنى العجز عن الاهتداء والفهم ، فنفضت يدى يائساً وقلت فليكن ما يشاء الله أن يكون ، ولأعش كما يتيسر لى أن أعيش والسلام ، ولأدع عناء التفكير والنظر لمن أراد أن يحطم رأسه ، فإنى أنا لا أشتهى هذا التحطيم ، وقد جربته فلن أعود إليه . ومن هنا قلة مبالاتى . وماذا أبالى بالله ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

هل انتهت السياحات والكشوف الظاهرة

فى القرن السابع عشر أو بعده ؟

للأستاذ أديب عباسى

إذا كتب الأستاذ الكبير — العقاد — أطرف وأبدع ، فلا يسع القارىء الذى يصح أن نطلق عليه هذا الاسم إلا أن يقرأ ما كتب الأستاذ . وإذا قرأ له القارىء فلا يسعه إلا أن يقرأ مترفقاً مستأنياً ؛ فليس الأستاذ العقاد بالذى تستطيع أن تقرأ له على الطريقة الأميركية ، طريقة الخطف واللمح والقراءة بالأسطر والفقرات بدل القراءة بالجمل والكلمات . وليس ذلك لإبهام فى الرأى الذى يبسط الأستاذ أو التياث فى الرأى الذى يشرح ، وإنما هو راجع إلى خصلة التركيز الشديد والعمق الصادق التى تتّسم بها كل آثار العقاد . وإذا قرأ القارىء الحصيف ما يكتب الأستاذ العقاد هذا النوع من القراءة المتئدة المترفقة فالأرجح أن يخرج مما قرأ له على وفاق معه لا يشوبه تردد الابهام ولا شك المداورة . ذلك بأن الأستاذ ، فى صميم ما يكتب ، لا يحاول أن يكتب ليفحم ، إنما يكتب ليفهم ، ويناقش ليقنع لاليدهش . أقول هذا لمناسبة ما كتب الأستاذ فى موضوعى « الحد الحاسم » و « النماذج والأفراد فى الأدب » اللذين نشرا فى عددى ٢٢٨ و ٢٢٩ من الرسالة . هذان المقالان يكادان يكونان نموذجاً لما تتصف به كتابات العقاد من العمق وسلامة المنطق وقوة التوجيه مع الشمول والاحاطة . ومن هنا بادرت أتهم نفسى بالتواء القصد عليها حينما رأيتنى أخالف الأستاذ فيما ارتآى فى ختام موضوعه الثانى فأرى هذا الرأى الذى أبسطه فى بقية هذه الكلمة ، ولكننى برغم ما اتهمت نفسى وأعدت قراءة الموضوع لم أوفّق إلى شىء يردّنى إلى رأى الأستاذ أو يوافق بين رأيه ذاك ، ورأيى الذى أبسطه هنا ليتكرم فيصلحه لى ، إن رآنى مخطئاً ، أو يصلح رأيه إن رآنى مصيباً

لخص الأستاذ فى مقاله الأخير رأياً للأستاذ أدولف وولف فى علاقة الديمقراطية والدين بظهور الخصائص المستقلة فى الصور الأدبية بعد القرن السابع عشر فقال : « فمنذ أصبح الانسان فرداً معزولاً فى حكم الدين لا اختلاط بين حسناته وسيئاته وبين حسنات الآخرين وسيئاتهم ولا التباس بين ثوابه وثوابهم وعقابه وعقابهم ، هنالك أصبحت كل نفس بما كسبت رهينة ، وأصبحت كل نفس حقيقة بالمحاسبة والاحصاء والمراقبة ، ورسخت جذور الديمقراطية فلم يبق إلا أن تظهر لها على وجه الأرض فروع وأوراق وثمار »

وكان من هذه الفروع — كما يرى الأستاذ — ظهور الخصائص الفردية والسمات المميزة والفوارق القوية فى الصوَر الأدبية الحديثة . هذه الخصائص والسمات والفوارق يجعلها الأستاذ وولف — كما لخصه لنا الأستاذ العقاد — رهناً بظهور التحليل النفسى الذى كان بدوره رهناً بشيوع الروح الديمقراطية والنظر إلى الفرد نظرة خاصة فاحصة ، فلا تَـفْنى معالم شخصيته ومظاهر سلوكه فى غمار الجمهور والنماذج التقليدية المرسومة . إنما يؤثر الأستاذ العقاد ، فى ختام موضوعه ، أن يرجع التحليل النفسى والديمقراطية معاً إلى شىء آخر « هو انتهاء الكشوف الظاهرة وابتداء الكشوف الباطنة ، أو انتهاء السياحات الجغرافية وابتداء السياحات النفسية الانسانية »

هنا يسمح لنا الأستاذ العقاد أن نخالفه ويسمح لنا أن نسأل : أصحيح أن الكشوف الظاهرة أو الكشوف الجغرافية انتهت فى القرن السابع عشر أو حواليه ، ومن ثم بدأت الكشوف الباطنة للنفس كنتيجة لانصراف الذهن البشرى عن الدراسات والسياحات الظاهرة إلى الدراسات والسياحات الباطنة ؟ ! إننى أشك فى صحة هذا الزعم ، بل أكاد أنفيه قاطعاً

ليست السياحات الظاهرة وقفاً على الضرب فى مجاهل الأرض واكتشاف كل رجا من أرجائها ؛ وليس الاستشراف للمجهول فى خارج حدود النفس الانسانية قاصراً على الحدود الجغرافية لقارات الكرة الأرضية ؛ فهناك السماء بعوالمها الشاسعة ، وأكوانها المبثوثة فى رحاب الكون وأسرارها المحيرة ؛ وثمت الذرة بصفاتها العجيبة وسلوكها الغريب وأسرارها الدقيقة ؛ وهناك أمواج الأثير من ضوء وحرارة وكهرباء وأشعة كونية

وخلافها ؛ وهناك النبات والحيوان ؛ وهناك ما يسيطر على كل أولئك من قوانين خالدة وقوى منظمة . أفبعد كل هذه العوالم العجيبة نستطيع أن نقول : لقد انقضى عهد الكشوف الظاهرة فى القرن السابع عشر أو انتهى مجالها ؟ ! كلا ! والدليل القاطع هذه الكشوف الرائعة التى انتهى إليها الانسان فى سياحاته بين أجواز الفضاء ورحاب الكون أو فى حقائق الذرة ومعاقلها المنيعة . ومن يستطيع أن يقول : إن الكشوف الظاهرة التى تمت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وبداءة هذا القرن فى عوالم الطبيعة والحياة تقل روعة وأسراً للخيال وشدها للانسان عن أروع المغامرات الجغرافية التى تمت فى القرن السابع عشر أو بعده ؟ ثم هذه الكشوف الجغرافية ذاتها هل انتهت حقاً فى القرن السابع عشر ؟ أين مغامرات سكوت وشاكلتون وبيرد وغيرهم ؟ قد يقال هذه المغامرات منها ما جاء متأخراً ومنها ما لم يقع إلا فى أوائل هذا القرن ، ولكن هذا فى اعتقادى ليس بالشىء المهم ، فالتطورات الفكرية والنفسية العامة تحسب بالأجيال والقرون ، ولا تحسب بالأيام والشهور والسنين .

وقد يسأل الأستاذ العقاد : إذن بماذا نفسر ظهور الدراسات الباطنة ، وما تلاه من تأسيس علم النفس التحليلى الذى مهد له أدباء الأجيال الحديثة فى كتابة القصة التحليلية ؟ وأجيب أن هذه الدراسات الباطنة للنفس كانت مظهراً عادياً يتساوق مع المظهر العام لنشاط الفكر البشرى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فلما كشفت الكشوف الفلكية والطبيعية والكيميائية والفزيولوجية ، كشفت كذلك الكشوف فى مجاهل النفس وخوافى الحس . فمذ اصطنعت الطريقة العلمية فى البحث وأخذ العلماء يجرون على أسلوب المشاهدة والفحص والاختبار اتخذت دراسة النفس خطة منظمة مجدية ، فظهر أولا علم النفس العام ، وتلاه علم النفس التحليلى ؛ ولكننا نعود ونقول : إن هذه الدراسة لم يكن الحافز فيها والباعث عليها انتهاء الكشوف الظاهرة ، وإنما كان الحافز عليها اتساع هذه الكشوف وسيرها على خطة علمية منظمة مجدية شملت الجماد والحيوان والانسان جميعاً . هذا وأحب أن أقرر هنا أن الدراسات النفسية لم تحد ولم تخرج عن حدود الحدس والتخمين وإيهام الفلسفة الذى قيدها من زمن أرسطو ، إلا حينما تابع رجالها أسلوب العلم الطبيعى فى المشاهدة والاختبار ، بل لقد استفادت الدراسات النفسية فائدة مباشرة مما كشفه البحث من العلاقة الوثيقة بين تركيب الجسم الفزيولوجى ومظاهر النشاط الفكرى والنفسى . ومن هنا كانت الدراسات النفسية باعتبار الزمن تابعة للدراسات الطبيعية مقلدة لها فى أسلوبها مستفيدة من حقائقها . ولقد بلغ من اعتماد علماء النفس اليوم على الطريقة العلمية فى البحث بحيث غدوا لا يؤمنون بأسلوب الاستبطان والدراسة الذاتية Introspection ، وأضحى همهم أن يدرسوا النفس البشرية دراسة موضوعية مبنية على المشاهدة الظاهرة والاختبار المنظم

وجملة ما نريد أن نقرره هنا أن الكشوف والسياحات الخارجية لم تنته قط فى القرن السابع عشر ، بل هى زادت واتسع نطاقها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وبداءة هذا القرن إلى الحد الذى يكاد يكظ الأذهان ويتخم الفكر . وإذن ليس صحيحاً أنه جاء يوم انقطع فيه الإنسان الباحث الفكر عن الكشف الظاهر فتسنى له مع ذلك الانقطاع أن ينصرف إلى السياحات الداخلية والكشوف النفسية . والصحيح أن الانسان الباحث تنبه إلى الكشوف الباطنة لما ارتفع مستوى البحث والتطلع واتسع نطاقه ومجاله حتى شمل كل موضوعات النظر والبحث وفيها صفات الإنسان النفسية والفكرية .

أديب عباسى

الحضـــارة المصرية
في عهد الدولة القديمة

بحث للعلامة الأثرى اريك بيت (١)

للأستاذ احمد نجيب هاشم

جغرافية مصر وأثرها

ليست هناك بلاد يمكن أن يتتبع فيها أثر البيئة فى طبيعة أهلها أكثر من مصر . فلفهم الحضارة التى قامت فى مصر القديمة يجب علينا أولا أن نصف المظاهر الطبيعية لهذا القطر

تنقسم مصر قسمين لكل منهما ميزات خاصة : مصر العليا، ومصر السفلى . والأولى شريط من الوادى يمتد من رأس الدلتا أو القاهرة الحالية إلى الشلال الأول ، وهى مسافة يبلغ طولها ٥٤٧ ميلا ، ولا يزيد عرضها فى أى اتساع على اثنى عشر ميلا ، وقد لا تزيد فى جهات على مائة ياردة . ويقع هذا الجزء فى منخفض حوالى ثلثمائة قدم عن مستوى الأراضى المحيطة به . ويرى فريق من الجغرافيين أن النيل هو الذى حفر لنفسه هذا الوادى العظيم أيام أن كانت الصحراء التى تحيط به غزيرة الأمطار . ويقول آخرون : إن هذا الوادى العيبي كان بمثابة الخط الأقل مقاومة للمياه المتجمعة فى الجهات المرتفعة فى الجنوب

عاش ساكن الصعيد فى واد ضيق يحد أفقه من الجانبين صخور جيرية تقع فى أعلاها الصحراء ، وهى أرض تكاد تكون عديمة الأثر فى حياته . وقد قسم المصرى الأرض إلى نوعين : الأرض السوداء ، وهو اسم أطلقه على وادى النيل بسبب لون تربته الداكن ، والأرض الحمراء ، وأراد بها الصحراء الرملية . وكانت معرفته بالممالك الأجنبية بسيطة إن لم تكن معدومة ، فكان يرمز إليها فى لغته الهيرغليفية كأنها بلاد جبلية بالنسبة لسهل مصر المستوى . واتخذ المصرى مجرى النيل مرشداً له فى غدواته وروحاته ، فالشمال عنده هو الجهة التى يجرى إليها النهر ، والجنوب الجهة التى يجرى منها . فكان يقول صعد أو نزل مع النهر بمعنى سار جنوباً أو شمالا ، وعلى ذلك لما بلغ المصرى نهر الفرات ببلاد العراق سمى ذلك النهر بذى المياه المنعكسة المجرى التى تنزل مع النهر أى تسير جنوباً بدلاً من أن تجرى شمالاً . وليس هناك ما يدل على عزلة المصرى القديم من اعتقاده هذا (١)

أما فى الدلتا فقد كانت الأحوال مختلفة كل الاختلاف إذ أن هذا المثلث المستوى والذى هو حديث التكوين نسبياً يكاد يكون خالياً مما يحدد أفق سكانه . ولابد أنه ظهر لهم كأنه سهل متسع يمتد حتى الأفق فى كل الجهات لا تتخلله تلال ولا مرتفعات ؛ بيد أن شروط العمل على الأرض كانت شبيهة بدرجة كبيرة بمثيلها فى الصعيد

ولاريب أن اتساع الأفق أمام سكان الدلتا وانعدام صخور الصحراء مما بث شعور الحرية فى كل جهة ، أنتج على عقولهم نتيجة مخالفة . وكان من سوء الحظ أن رسوب غرين النيل فى الدلتا مضافاً إليه حاجة الزراعة جعلت أغلب المدن الفرعونية القديمة وراء علم الباحث ، ولذا لا يمكننا أن نقدر الدور الذي لعبه فى تطور التاريخ المصرى القديم

أما من حيث الجو فمعروف أن الوجهين البحرى والقبلى يتمتعان بجو جميل على العموم ، ويسقط المطر فى الدلتا ويكاد ينعدم فى الصعيد ، وقد ينهمر عليه سيل غزير مرة فى كل عشر سنوات

وتشتد الحرارة فى الصعيد وتزداد شدتها كلما اتجهنا جنوباً . هذه هى أهم المظاهر الطبيعية لمصر ، ولا يقل عنها أهمية موقعها الجغرافى ، وهى تحمى مدخل أفريقية ضد الغزو من جهات أسيا الغربية ، فقد كانت تلك الأجزاء على الدوام مركزاً للاضطرابات التى كانت أحياناً تشتد جداً إذا كان سكانها يميلون إلى الهجرة إلى دلتا مصر الخصبة ، وتكررت غزواتهم وكان لكل نتائج وقتية . ولا شك أن هذه الغزوات حالت دون الاطراد فى تقدم مصر . ففى كل مرة خرجت فيها مصر من الضربة التى أصابتها استنفد هذا الخروج كثيراً من نشاطها ، وكان من الممكن أن تستنفده فى نيل تقدم حقيقى

ولم تكن الدلتا أسلم فى جهة الغرب منها فى جهة الشرق ، فهناك

(١) كان العلامة Eric Peet أستاذاً للعاديات المصرية فى جامعة ليفربول وقد توفى فى سنة ١٩٣٣

(١) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور ترجمة الدكتور حسن كمال (ص ٦)

عاشت قبائل ليبية لم تقتصر فى سكناها على الأقليم الساحلى ، بل نزلت أيضاً فى الواحات التى تمتد جنوباً داخل أفريقية ؛ وربما استولى بعضها فعلا على الجزء الغربى من الدلتا فى عصر ماقبل الأسرات .

وعلى كل حال كانت هـذه القبائل الليبية طول التاريخ المصرى القديم تنتهز ضعف الحكومة فى مصر أو قيام نزاع داخلى فيهـا فتنقض على الأراضى الخصبة التى اعتقدت أنها ميراثها القديم

أما الصعيد فلم تهدده غزوات تقريباً ؛ إذ ليس له جيران فى الشرق ولا فى الغرب ؛ ثم إن الصحراء نفسها كانت بمثابة سد منيع ضد أي إغارة من الجهتين

أما من جهة الشمال والجنوب فقد كان من السهل الدفاع عن البلاد بمقدمة حربية لا تزيد على ميل أو ميلين بل لا تزيد أحياناً على بضع مئات من الياردات

وكانت الدلتا من جهة الشمال سداً منيعاً ضد غزو الأسيويين من الشرق والليبين من الغرب

أما من جهة الجنوب فإن القبائل المتوحشة فى النوبة العليا والسودان لم تزعج مصر إزعاجاً يذكر إلا فى عهد الفاتح بعنخى فى القرن الثامن قبل الميلاد

على ذلك نرى الأحوال فى الصعيد كانت تتم بالاستقرار الذى كان ينقص الدلتا . وفى كل مرة تقع فيها الدلتا فريسة للغزو الأجنبى نرى الصعيد ينجو منها ويصل تقدمه السياسى والاجتماعى ، بل يكون على استعداد عند ما تتخلص البلاد من غزاتها الأجانب أن يعيد المياه إلى مجاريها فى الداخل والعمل على توسيع ملكها فى الخارج

مصر قبل الأسرات

كانت مصر العليا والنوبة قبل قيام الأسرة الأولى فى يد جنس واحد له مدنية واحدة ونسميه شعب ما قبل الأسرات .

ولا يزال البحث العلمى يكشف لنا شيئاً عن هؤلاء القوم الذين يمكننا أن نتبع حوادثهم فى مقابر البدارى ، وعند ما نسمع عنهم لأول مرة لانراهم متوحشين بل نجدهم قد عرفوا النحاس ولهم فنونهم وحرفهم ؛ وأهم من كل هذا أنهم عرفوا الزراعة واشتغلوا بها

وهذه الحقيقة الأخيرة هي أساس فهم حياة مصر الاجتماعية ، فنظامها قائم على الزراعة — ولا نعرف أين نشأت لأول مرة بل ليس من المؤكد أيضاً أنها ظهرت فى تلك الجهات مثل وادى النيل أو الفرات حيث الظروف أكثر مناسبة لها ، وإنما يمكننا أن نقول إن الزراعة وما تطلبته من صناعات تقدمت بسرعة بعد أن قامت فى مصر وأخذت تؤثر فى أخلاق الناس ونظمهم

أما الصيد وهو إحدى الوظائف الثلاث الهامة التى اشتغل بها الإنسان الأول فلم يلعب دوراً هاماً فى الحياة المصرية . نعم يرجح ان الصحراء التى تقع على جانبي وادى النيل كانت تأوى كثيراً من الحيوانات المتوحشة ، فهنـاك لوحة يرجع تاريخها إلى ما قبل الأسرات عن حملة منظمة أرسلت لصيد الأسود . ثم نرى فى مقابر أشراف المصريين القدماء طول مدة تاريخهم مناظر تمثل أصحابهـا وهم يقومون بحملات لصيد الأسود والفهود والوعول مستعملين لذلك السهام . على أن الصيـد كان ولا يزال عندهم وسيلة من وسائل الرياضة عند الأشراف ولم يتخذه الأهالى وسيلة للارتزاق ؛ فإن هؤلاء كانوا يحصلون على حاجاتهم من اللحوم من طيورهم وحيواناتهم المستأنسة . وفى الوقت نفسه يظهر أن صيد الوعول وغيرها من حيوانات الصحراء الصغيرة التى تربى وتسمن وتقدم على المائدة مع (الدواجن المألوفة) كان ذلك من الأشياء التى تمارس لتكون مرتزقا

أما الطيور والسمك فقد كانت برك الدلتا ملأى بكثير منها ، وكانت تصاد بشباك ثم تربى للأكل . وقد عثر على بقايا الفخاخ التى كانت مستعملة لذلك . والمقابر ملأى بالرسوم التى تمثل الطيور

وقد اتخذ النبلاء صيد الطيور وسيلة للرياضة أيضاً فنرى من هذه الرسوم صوراً تمثل النبيل فى قاربه المصنوع من البردى وهو يصيب الطير بعصاه

وقد أولع المصريون بصيد السمك إذ كان طعاماً أساسياً للأهالى . وكان الصياد يصيده بالشص ؛ أما النبيل الذى يتخذ هذا الصيد وسيلة من وسائل الرياضة والتسلية ، فقد كان يصيده برمح . وقد كانت هذه الطريقة فى الأصل مستعملة فى عصر ما قبل الأسرات كما يستدل على ذلك من الحراب المصنوعة من العظام والنحاس التى عثر عليها الباحثون

هكذا لم يكن المصريون الأوائل صيادين بمعنى الكلمة فلم تدفعهم الحاجة إلى تتبع فريستهم مما يجعل شعب الصيادين متنقلا غير مستقر ، فقد يفر الأسـد وعجل البحر أو الفيل من الصعيد

إلى النوبة ثم إلى السودان ولكن المصرى لم يحاول أن يقتنى أثرها

قد يختلف علماء الأنتربولوجيا فى النقطة الآتية : هل من الممكن لشعب أن ينتقل من طور الصيد إلى طور الزراعة دون أن يمر بطور الرعى ؟ ولكن هذه المسألة لا تعنينا هنا فإننا نجد فى مصر فى عهد ما قبل الأسرات ، الزراعة والرعى قائمين جنباً إلى جنب

ولهذا السبب لا يمكننا أن نعتبر المصريين قوماً رعاة بمعنى الكلمة ، وليست مصر على أى حال بلاداً من طبيعتها الرعى . أجل قد يكون من الجائز أن الزراعة لم تشمل كل البلاد فى الزمن العريق فى القدم ، وأنه كانت هناك أرض مغطاة بالأعشاب مخصصة للماشية . على أى حال فإن أراضى الرعى فى عهد الدولة القديمة كانت قليلة فى الصعيد لدرجة كبيرة حتى اضطر القوم أن يرسلوا ماشيتهم فى عهدة رعاة إلى الدلتا مدة أشهر الصيف . ولعل هذه الحال تغيرت فيما بعد وأصبحت كما هى اليوم حيث تربى الماشية على علف خاص يزرع لها

استأنس المصريون قليلاً من الحيوانات منها الماشية التى اتخذوا منها اللبن وزودت الأغنياء باللحوم واستعملوها فوق ذلك وسيلة من وسائل النقل . وإن أهم حيوان فى هذه الناحية كانت الأبل . أما الغنم فلم تقتصر الفائدة على لحومها بل كانت هامة أيضاً لأصوافها ؛ ثم استعملت الخنازير فيما بعد (للدوس) فوق البذور بعد بذرها

ومن الحيوانات التى استأنسها المصريون الجدى والكلاب السلوقى والقط ؛ أما الحصان فلم يعرف إلا بعد دخول الهكسوس مصر . وكذلك ظل الجمل مجهولاً حتى عهد اليونان

وكان للثور أهمية كبيرة كأهمية الجاموسة فى العصر الحالى . وكان الفلاحون يعملون على تسمينه بإعطائه خميرة من العجين إذا قل غذاؤه الطبيعى . وكان الرجال يحلبون البقر بدلاً من أن يقوم النساء بهذه العملية

ونرى فى النقوش التى تمثل لنا حياة المصريين (جنباً إلى جنب) مع الحيوانات المستأنسة صورة غزالة خجلة ، وكانت هذه من الأطعمة الفاخرة للأغنياء وقد عملوا على تسمينها بإعطائها خميرة — كما كان الحال مع الماشية — وليس هناك ما يدل على أنها ربيت ، بل يرجح أنها كانت تصاد من الصحراء بشباك أو فخاخ

ولم يستأنس المصريون الطيور إذ كانت برك الدلتا ملأى بالبط على أنواعه ، وأدرك القوم أن صيدها بالشباك وتسمينها فى مدة قصيرة قبل ذبحها للأكل أوفر لهم من الإنفاق عليها لاستئناسها

وهنا يجب أن نذكر أن الدجاج لم يعرفه المصريون حتى عهد الدولة الحديثة عند ما عادت إحدى حملات تحوتمس الثالث بأشياء عجيبة من بينها طيور « تبيض كل يوم بيضة »

على أن الزراعة كانت أهم ما اشتغل به أكثر المصريين على الأقل فى فترات معينة من السنة ، فقد كان النيل كريماً من ناحية وقاسياً من ناحية أخرى على البلاد : فهو كريم بما يجلبه من غرين يلقيه على تربة الأرض فيجعل السماد غير ضرورى تقريباً ، وهو قاس لأنه بمجرد أن يتم فعل هذا يأخذ فى الانخفاض فيصعب على الفلاح أن يروى أرضه منه . وإذا كانت مصر شحيحة الأمطار كانت سعادتها متوقفة على نشاط الزراع ومجهودهم فى رفع المياه من النهر وتسييرها فى قنوات وترع إلى أرضهم . والغريب أن الطريقة التى استعملوها لذلك هى نفس الطريقة التى يستعملها الفلاح اليوم أى بالشادوف

أهم المحصولات

كانت أهم المحصولات فى العصر القديم الشعير والقمح والكتان؛ وكانت طرق الزراعة غاية فى البساطة ، فحينما ينخفض ماء النيل يحرث الفلاح الأرض بمحاريث من الخشب كان يجرها فى عصر المملكة القديمة الثيران ، ثم يبذر الحبوب وتدوسها الغنم كى تغرسها فى الأرض (وقد استخدمت الخنازير فيما بعد فى هذه العملية) ثم يلى ذلك أسابيع يقضيها الفلاح فى العمل بنشاط أمام الشادوف . فإذا طاب الزرع حصد الفلاح القمح وترك العيدان فى الأرض ، ونقل القمح المحصود فى شكل حزم على الحمير إلى الجرن ، وهناك تدوسه الحمير والماشية ، ثم يذرى فى الهواء بمذراة من الخشب فينفصل التبن عن القمح (الحب) ثم يوضع القمح فى الزكائب وينقل إلى مخازن خاصة تتكون من بناء من اللبن كالقباب له فتحة صغيرة فى أعلاه يصب القمح منها ، وفى أسفل البناء باب لسحب الغلال حسب الحاجة . وكان الكاتب يشرف على هذه العملية فيدون فى لفائف ورق البردى التى يحملها ما يخزن من الغلال زكية زكية وما يخرج منها

وقد استعمل الشعير والقمح فى صنع الخبز وعمل الجعة . وزيادة على هذه المحاصيل كانت هناك نباتات أخرى أهمها الخضر المختلفة وخصوصاً البصل ، وكان غذاء أساسياً ؛ ثم فواكه كثيرة

أهمها التمر والتين والعنب، وكانت تكثر زراعته فى الدلتا، وقد صنع المصريون من التمر نوعاً من النبيذ والعرق

توحيد القطرين

كانت مصر قبل الأسرة الأولى منقسمة إلى مملكتين منفصلتين: مملكة الوجه القبلي ومملكة الوجه البحري. وكانت هاتان المملكتان مقسمتين أمارات لكل منها طوطم خاص كان بمثابة علم الإمارة الذى كان يحمل أمام رئيسه. ومما لا شك فيه أن بعض هذه الرموز كانت اسما للمقاطعة باللغة الهيرغليفية، وكان البعض الآخر رموزاً للقبيلة؛ ومن هذه الرموز ما هو فى شكل حيوان كالأرنب والوعل

ويعتقد العلماء أن أصل هذه الرموز راجع إلى أن مصر كان يسكنها فى وقت ما قبائل مستقلة، كل قبيلة ترمز لنفسها بنوع خاص من الحيوانات أو النباتات يكون معروفاً لجميع أهلها ويميز كل قبيلة من غيرها

وحدث قبل قيام الأسرة الأولى أن انضمت قبائل الوجه القبلي وكونت مملكة واحدة، وكذلك فعلت قبائل الوجه البحري ثم قامت محاولات لتوحيد القطرين، وتم ذلك على يد رجل واحد عرف باسم مينا. ويرجح أنه بقيام الأسرة الأولى انتهى الدور الطوطمي بمدلولاته الاجتماعية؛ وأهم ما تركه من آثار مجموعة الآلهة التى فى جسم إنسان ورأس حيوان مثل تحوتى ورمز له بطائر أبي منجل، وسبك ورمز له بالتمساح، وحوريس ورمز له بالصقر

كان اندماج القبائل فى كل من الوجهين القبلي والبحري أمراً طبيعياً، لأن انتشار الزراعة أدى إلى الرغبة فى الاستقرار وإدراك المصلحة المشتركة؛ أما انضمام الوجهين إلى بعضهما فقد كان أقل ضرورة، إذ كون كل منهما وحدة جغرافية قائمة بنفسها؛ ولذلك يرجح أن هذا الضم تم على يد رجل ذكي دفعته أطماعه إلى ذلك. هكذا استطاع مينا أن يوحد القطرين وأصبح الميدان حراً لظهور شعور قومي. ومع أن المصريين حافظوا على ذكر هذا الضم وحرصوا على إظهاره فى ألقاب الملك وفى أسماء دواوين الحكومة إلا أن الاندماج كان فى الواقع تاماً وأبدياً فأصبحت مصر منذ ذلك الوقت — عدا فترات الفوضى القصيرة — مملكة واحدة

أحمد نجيب هاشم
أستاذ بمعهد التربية للبنات

(البقية فى العدد القادم)

نجوى للشمس الغاربة

للكاتب الفنان الفرنسي «بيير لويس»
P. LAUYS
للأستاذ خليل هنداوى

أركاس — أيتها الغادة ذات العينين السوداوين ...

ميلينا — لا تمسني!

أركاس — لن أمسك، وإنما سأظل بعيداً عنك يا أخت أفروديت! أيتها الغادة ذات الغدائر المدلاة كالمناقيد، إنني أقف على حافة الطريق لا أستطيع أن أتزحزح عنه لا إلى من ينتظرونني ولا إلى من غادرتهم

ميلينا — إذهب! إنك تنطق عبثاً، يا راعياً بدون قطيع! ويا سارحاً فى الطرق المبهمة! إذا لم تستطع أن تتبع الطريق تخض خلل الحقول، ولكن لا تدخل فى حقلي يا من لا أعرفك. إذهب وإلا دعوت ...

أركاس — ومن عسى تدعين فى هذه العزلة؟

ميلينا — الآلهة الذين ينتظرونني

أركاس — آه أيتها الغادة الصغيرة! إن الآلهة هم أبعد عنك مني الآن. ولو أنهم كانوا حولك لما منعوني أن أقول لك إنك جميلة. إنهم يباهون نحورين بوجهك لأنهم يعلمون أنه أثر رائع منهم

ميلينا — أسكت أيها الراعي وابرح هذا المكان فإن أمي منعتني أن أسمع أية كلمة من رجل. إنني هنا أرعى نعاجي حتى غروب الشمس. لا أريد أن أسمع أصوات الفتيان العابرين فى الطريق مع ريح المساء.

أركاس — ولماذا؟

ميلينا — لا أعلم السبب، ولكن أمي تعلمه خيراً مني ... لم يمر على ولادتي فوق هذا السرير القائم من أوراق الشجر إلا ثلاثة عشر عاماً؛ وإني سأكون غبية جاهلة إذا أغفلت عمل ما تطلبه مني أمي.

أركاس — إنك لم تفهمي أيتها الصغيرة عن أمك الحسنة العاقلة المحترمة ... إنها حدثتك عن الرعاع الذين يعبرون البراري والعقد

فى أذرعهم والسيوف مشهورة بأيديهم . إن هؤلاء لئام بالنسبة إليك لأنك ضعيفة وهم أقوياء . وهم فى الأقطار التى نزلوها ذبحوا عذارى كثيرات لهن مالك من الجمال . ولو رأوك لما أشفقوا عليك . ولكن مثلى أى شر يحمله لك ؟ ليس لى إلا جلد على كتفي وخاتم فى يدى . حدقى فىّ مليّا ، هل ترينني مرعباً ؟

ميلينا — لا أيها الراعى ، إن كلماتك عذبة سوف أصغى إليها طويلاً . ولكن الكلمات الأعذب هي الأغدر عند ما يتوجه بها رجل إلى واحدة منا

أركاس — وهل إلى جواب من سبيل ؟

ميلينا — بلى !

أركاس — بماذا كنت تحلمين تحت الزيتونة السوداء خلال عبورى ؟

ميلينا — لا أريد أن أقول

أركاس — أعرف ذلك

ميلينا — قل إذن

أركاس — إذا أذنت لي بالدنو منك وإلا لبثت صامتاً ، لأننى لا أستطيع أن أقول إلا همساً . لأن هذا سرك لا سرى . إنك تريدين أن أقترب منك وأن أتناول يدك

ميلينا — بماذا كنت أحلم ؟

أركاس — بنطاق العذراء !

ميلينا — آه ! من قال لك ؟ هل قلت ذلك عالياً ؟ هل أنت إله أيها الراعى فتقرأ ما يرتسم من بعيد فى عيون الفتيات ؟ لا تنظر إلىّ هذه النظرة ولا تحاول أن تقرأ ما أفكر فيه الآن ..

أركاس — إنك تحلمين بنطاق العذراء وبذلك المجهول الذى سيحله بمثل هذه الكلمات العذبة التي رحت تخشينها ... فهل تكون إذ ذاك هذه الكلمات غادرة ؟

ميلينا — إننى لم أسمع أبداً مثلها

أركاس — ولكنك تسمعين كلماتى وترين عينى

ميلينا — لا أريد أن أراهما

أركاس — إنك تنظرينهما فى حلمك

ميلينا — أيها الراعى ...

أركاس — عند ما آخذ بيدك لماذا تجفين ؟ وعند ما يلتف ذراعى على صدرك لماذا تنحنين ؟ ولماذا يبحث رأسك الضعيف عن ذراعى ؟

ميلينا — آه أيها الراعى

أركاس — كيف تكونين عارية هكذا بين ذراعى إذا لم أكن بعلك ؟

ميلينا — لا لا ، إنك لن تكونه . دعني وحدى ، إن أحشائى ترعد من الخوف فاذهب عنى ! إننى لا أعرفك . دعنى ! إن يدك تؤلمنى ، لا أريد

أركاس — لماذا تتكلمين بلهجة أمك ؟

ميلينا — ليست أمى هي التى تكلمك وأنما أنا ! إننى عاقلة فاتركنى أيها الراعى . إننى لأستحيى أن أفعل ما فعلت « تاييس » أو « فيليرا » أو « كلوا » اللواتي لم ينتظرن ليالى أعراسهن

أركاس — ولماذا ؟ وما عسى أن أصنع لك ؟ ... على أننى أهجرك وأتركك وحيدة . اذهبى ! لماذا لا تذهبين ؟

ميلينا — ذرنى أذرف الدمع

أركاس — أتخالين أنني أحبك حباً ضعيفاً يأذن لى بتركك وحدك ؟ وهل كنت أتكلم من بدء إصغائك إلى لو لم أطلب إليك إلا لحظة سرور قد تستطيع أن تمنحى إياها كل الراعيات ؟ ألم تعلمك عيناى شيئاً ؟ ولكنك لا تنظرين فيهما ، فى عينى ... إنك توارين عينيك وتبكين ...

ميلينا — بلى !

أركاس — إذا شئت فانى أسفح على قدميك حياة كلها حب وكلمات عذبة ، وألف بذراعى جسدك ، وألقى رأسى على صدرك ، وفمى على فمك ، وأنت تحلين غدائرك المعقودة لتغمرى قبلاتنا بالعطف والرقة

اسمعى ! إذا شئت أقمت لك كوخاً أخضر الأفياء من الغصون الزاهرة والأعشاب الندية تصيح خلالها الصراصير الشادية ذات الألوان الذهبية اللامعة . هنالك تقلقين علىّ كل الليالى ، وعلى السرير الأبيض الذى يغطيه جلدى الممدود سيخفق قلبانا إلى الأبد قلباً على قلب

ميلينا — آه دعني أذرف الدمع أيضاً !

أركاس — بعيدة عنى ؟

ميلينا — على ذراعيك ، وفى عينيك

أركاس — يا محبوبتى ! المساء يلف الكون ، والنور يتوارى كأنه كائن مجنح نحو السماء ، والأرض قد غمرها الظلام ، ولا يرى فى الأعلى إلا طريق المجرة الطويلة التى تسطع كنهر من النجوم حول حقلنا . ما أشد هذا الستار اللامع !

ميلينا — إنه لامع جداً . قدنى إلى حيث تشاء !

أركاس — تعالى ! فالغاب الذى نجوس خلاله بين الغصون الحانية هو غاب عميق ، حتى الإلهات يخشين سلوكه فى النهار . هنالك لا يُرى — على طرقه — من يتبع خطوات الجنيات . هنالك لا يُرى — بين أوراقه — العيون الخضراء واقعة على عيون الرجال الخائفة . ولكنا لن نخاف مادمنا معاً أنت وأنا ...

ميلينا — لا ... إننى أبكى بالرغم منى ، ولكنى أحبك وأتبعك . إن إلهاً فى قلبى . حدثنى ... حدثنى أيضاً . إن إلهاً فى صوتك

أركاس — اسدلى غدائرك على عنقى ، وأرخى ذراعك حول إزارى ، وضعى خدك على خدى . خذى حذرك ، هنا حجارة وصخور ؛ واخفضى عينيك ، هنا جذور ؛ والأعشاب لها حفيف خفيف تحت أقدامنا العارية ؛ والثرى ندى ، ولكن صدرك حار تحت يدى

ميلينا — لا تبحث عن صدرى فإنه صغير ، ليس بجميل . فى الخريف الغابر لم أرمنه إلا ما رأيته يوم ولادتى ... إن صويحباتى يسخرن منى . ولكن فى الربيع وجدته ينمو مع براعم الأشجار . لا تدغدغه هكذا . إننى لا أستطيع أن أمشى

أركاس — تعالى ، نحن هنا فى الظلام ، لا أرى وجهك . نحن هنا شىء لا هو أنا ولا هو أنت . لا تعطنى شفتيك . أريد أن أرى عينيك . تعالى إلى هذه الشجرة الكهلة التى تسطع تحت رواء القمر . إن ظلها يزحف نحونا فاتبعيه ...

ميلينا — إنه ظل ضخم كالقصر

أركاس — قصر عرسك الذى تتفتح أبوابه لنا فى أعماق الليلة السرية

ميلينا — أسمع ضجة ، هذا حفيف النخيل

أركاس — النخيل النامى فى موكب العرس

ميلينا — وهذه النجوم

أركاس — إنها المشاعل

ميلينا — وهذه الأصوات

أركاس — هى الآلهة

ميلينا : أيها الراعى ! دخلت هذا المكان عذراء (كأرتميس) التى تضىء لنا بعيداً خلل الغصون السوداء والتى قد يمكن أن تسمع عهودنا . فلا أعلم هل أحسنت صنعاً فى اتباعك حيث سلكت . ولكن نفخة فى صدرى ، وروحاً ولدها صوتك ، إنك منحتنى السعادة كشىء خالد بإعطائك إياى يدك

أركاس — أيتها الغادة ذات العينين السوداوين . لا أبوك ولا أمك هيئا اتحادنا بغنائك أو غناى . إننا فقيران فنحن إذن حران . وإذا كان أحد سهل قراننا هذا المساء فهم آلهة الأولمب الذين يحرسون الرعيان !

ميلينا — يا زوجى ، قل لى ما اسمك ؟

أركاس — اسمى أركاس . وأنت ما اسمك ؟

ميلينا — اسمى ميلينا ...

خليل هنداوى

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٩ —

بين الرافعي وطه (٢)

لم تكن بداية هذه المعركة تنذر بما آلت إليه، فما كانت فى أولها إلا خصومة بين مذهبين في الأدب وأسلوبين في الكتابة، فما لبثت من بعد أن استحالت إلى حرب شعواء يتقاذف فيها الفريقان بألفاظ الكفر والضلال والالحاد والغفلة والتعصب والجمود، وانتقلت من ميدان الأدب واللغة إلى ميدان الدين والقرآن، ثم إلى ميدان السياسة والحكومة والبرلمان، ثم إلى ميدان القضاء. والدكتور طه رجل لا تستطيع أن تفرق بين مذهبه فى الأدب ومذهبه فى الدين، ولا بينهما وبين مذهبه فى السياسة. والرافعي رجل كان لا يفرق بين الدين والأدب، ولا يعرف شيئاً منهما ينفصل عن شيء أو يتميز منه، ولكنه في السياسة كان يتحلى بفضيلة الجهل التام، فلا تعرف له رأياً فى السياسة تؤاخذه به أو تناقشه فيه، لأنه كان لا يعرف من السياسة إلا حادثة اليوم بأسبابها، لا بأصحابها. وكم جر عليه هذا الجهل السياسى من متاعب! وكم ألصق به من تهم! ولكنه هنا كان من عوامل توفيقه فى هذه المعركة

***

فى سنة ١٩٢٥ كانت الحكومة للأحرار الدستوريين ولأصدقائهم. والأحرار الدستوريون حزب طه حسين، نشأ بينهم ووقف قلمه على الدعاية لهم. فلما رأى على ماهر باشا أن يضم الجامعة المصرية إلى وزارة المعارف، انضم معها الدكتور طه حسين أستاذ الأدب العربى بالجامعة.

ومضى الدكتور طه يحاضر طلابه فى كلية الآداب محاضرات فى الأدب الجاهلى، على الأسلوب الذى رآه لهم؛ فلما استتم النام جمع طه محاضراته فى كتاب أخرجه للناس باسم « فى الشعر الجاهلى »؛ وقرأ الناس كتاب الدكتور طه حسين بعد أن سمعه طلابه منجَّماً في كلية الآداب، فقرأوا رأياً جديداً فى الدين والقرآن رجح ما كان عندهم ظناً بالدكتور طه حسين وكتّاب السياسة الأسبوعية. فقال الأكثرون من القراء: هذا كفر وضلال. وقالت طائفة: هو خطأ فى الفكر وإسراف فى حرية الرأى. وقال الأقلون: بل هو الأسلوب الجديد لتجديد الآداب العربية وتحرير الفكر العربى. وظل الرافعي ساكتا، إذ لم يكن قد قرأ الكتاب بعد، فما نبهه إلى خطره إلا مقالان نشر أحدهما الأستاذ عباس فضلى القاضى فى السياسة الأسبوعية، وكتب ثانيهما الأمير شكيب أرسلان فى كوكب الشرق، فكان فيهما الانذار للرافعى بأنه قد آن أوانه ...

وانتضى الرافعي قلمه وكتب مقاله الأول فبعث به إلى جريدة « كوكب الشرق »، ثم مقالات ثلاثاً بعده، ولم يكن قد قرأ الكتاب ولا عرف عنه إلا مانشرت الصحف من خبره؛ فكانت المعركة بذلك فى ميدانها الأول: خصومة بين مذهبين فى الأدب وفى الكتابة وفى طرائق البحث. على أن الرافعي لم ينس فى هذه المقالات أن له ثأراً عند طه، فجعل إلى جانب النقد الأدبى فى هذه المقالات شيئاً من أسلوبه المرّ فى النقد، ذلك الأسلوب الذى لا يريد به أن يفحم أكثر مما يريد أن يثأر وينتقم. ثم تلقّى كتاب الدكتور طه حسين فقرأه، فثارت ثائرته لأمر جديد ...

لقد كان شيئاً منكراً أن يزعم كاتب أن له الحق فى أن يتجرّد من دينه ليحقق مسألة من مسائل العلم، أو يناقش رأياً من الرأى فى الأدب، أو يمحِّص رواية من الرواية فى التاريخ؛ لم يكن أحد من كتاب العربية ليترخّص لنفسه فى ذلك فيجعل حقيقة من حقائق الدين فى موضع الشك، أو نصاً من نصوص القرآن فى موضع التكذيب؛ ولكن الدكتور طه قد فعلها وترخّص لنفسه، ومنح نفسه الحق فى أن يقول قالةً فى القرآن وفى الإسلام وتاريخ الإسلام؛ وقرأ الرافعى ما قال طه، فغضب غضبته للدين والقرآن وتاريخ المسلمين، ونقل المعركة من ميدان إلى ميدان ...

وكان طه فى أول أمره عند الرافعى كاتباً يزعم أن له مذهباً

جديداً في الأدب ، فعاد مبتدعاً مُضِلاً له مذهب جديد في الدين والقرآن ؛ فكما ترى البدويّ الثائر لعرضه أن يُنتَهك ، كان الرافعي يومئذ ؛ فمضى يستعدي الحكومة والقانون وعلماء الدين أن يأخذوا على يده ويمنعوه أن تشيع بدعتُه في طلاب الجامعة ... وترادفت مقالاته ثائرةً مهتاجة تفور بالغيظ وبالحميّة الدينية وبالعصبية للإسلام والعرب ، كأن فيها معنى الدم

ونسى في هذه المقالات كلَّ اعتبار مما تقوم به الصِّلاتُ بين الناس ، فما كان يكتب نقداً في الأدب ، بل يصبّ لهيباً وحمماً وقذائف لا تُبقِي على شيء . وكان ميدانه في جريدة كوكب الشرق ، وكوكب الشرق يومئذ هي جريدة الأمة وجريدة سعد وجريدة الشرق العربي كله ؛ فمن ذلك لم يبق في مصر قارئ ولا كاتب إلا صار له رأى في طه حسين وفي دينه ، وإن للأمة من قبل لرأياً في وطنيته ومذهبه ، وحسبك بها من وطنية في رأى الشعب ، وطه حسين هو عدوّ سعد

ووقفت الدوافع السياسية إلى جانب الرافعي تؤيده وتشدّ أزره ، وإن لم يكن للرافعي في السياسة باع ولا ذراع

وبلغت الصيحة آذان شيوخ الأزهر ، فذكروا أن عليهم واجباً للدفاع عن الدين والقرآن فجمعوا جماعتهم إلى جهاد

وتساوقت الوفود إلى الوزارة تطلب إليها أن تأخذ طه بما قال ؛ وإن طه لأثير في وزارة الأحرار الدستوريين وأصدقائهم ، ولكنها لم تستطع أن تتجاهل إرادة الرأى الإسلامي العام ...

ومضى الرافعي في حملته تؤيده كل القوى وتشدّ أزره كل السلطات

ونشطت النيابة العمومية لتنظر في شكاوى العلماء وتحدد الجريمة وتقترح العقاب ، فعرف الدكتور طه حسين أن عليه وقتئذ أن يقول شيئاً ، فكتب كتاباً إلى مدير الجامعة يشهده أنه مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ولكن الرافعي لم يقنع فمضى في النقد على جادّته

ولم تجد الجامعة في النهاية بُدّاً من جمع نسخ الكتاب من المؤلف ومن المكتبات لتمنع تداوله ، لعل ذلك يرد الفتنة التي توشك أن تعصف بكل شيء حتى الجامعة ، ولكن الرافعي لم يقنع فاستمر في حملته على الدكتور طه حسين ، وظهيرُه يومئذ هو الدكتور زكي مبارك ... !

لقد كانت هذه المقالات التي ينشرها الرافعي في كوكب الشرق صيحةً مدويّة وصلت إلى كل أذن ؛ فما أحسب أحداً في أدباء العربية وقرائها قد فاته منها شيء . لقد كان المصريون وقتئذ مكمومة أفواههم عن السياسة والحديث في شئونها فلعلهم وجدوا في هذه المقالات ما يعزّيهم عن شيء بشيء ، إذ كان طه عندهم يومئذ ما يزال هو طه حسين عدوّ سعد ، ومحرر جريدة السياسة ، وعضو الأحرار الدستوريين

لا أزعم أن اهتمام الناس جميعاً في مصر بهذه المقالات لأنهم جميعاً قد صار لهم في شئون الأدب رأى ، أو لهم في الذود عن الإسلام حميّة ، لا ؛ ولكنه نوع من التعصب السياسي جاء اتفاقاً ومصادفة في هذا الوقت نفسه ليكون تأييداً لقول الله وانتصاراً لكلمته ؛ على أن هذه المقالات بإقبال الناس عليها — لسبب أدبي أو لسبب سياسي — قد بعثت روحاً دينية كانت راقدة ، وأذكت حمية كانت خامدة ، وألّفت قلوباً إلى قلوب كانت متنافرة ، ونبهت طوائف من عباد الله كانت أشتاتاً لتعمل للذَّود عن دين الله

وإني لأذكر مثلاً مما كان من إقبال الناس على هذه المقالات أنني — وكنت طالباً ... لم أكن أطيق الانتظار حتى يجيء بائع الصحف إلى الحي الذي أسكنه لآخذ منه كوكب الشرق ، بل كنت وجماعة من الطلاب نستعجل فنقطع الطريق من المنيرة إلى باب اللوق راجلين لنشتري من الأعداد المبكرة المسافرة إلى حلوان ، لنقرأها قبل أن يقرأها الناس

* * *

وتطورت السياسة المصرية ، وتخلى زيور باشا عن الحكم ، وعادت حكومة الشعب يؤيدها برلمان سعد ؛ وعكف نوّاب الأمة على تراث الحكومة الماضية يفتشون عن أخطائه ؛ وما يزال في آذانهم صدى برنّ عما كان من أمر الجامعة وأمر طه حسين ، فأبدى البرلمان رغبته في محاكمته . وقال النواب : نحن نريد . وقالت الحكومة : وأنا لا أريد . وتشادّ عدلي رئيس الحكومة

وسعد رئيس النواب ؛ فقامت زوبعة ، ونشأت ضجة ، وحدثت أزمة وزارية ، ولوّح عدلي بالاستقالة ، وأصر سعد على وجوب تنفيذ رأى الأمة ، وتعقّدت المشكلة ...

وسعى الوسطاء بالصلح بين الزعيمين ؛ فما كان الحل إلا أن يتقدم النائب الجليل عبد الحميد البنان بشكواه إلى النيابة العمومية فتسقط التبعة عن الحكومة ، ويُنفّذ رأى الأمة ، ثم تسير القضية إلى غايتها أمام القضاء وكان بعد ذلك ما كان

وإذْ كان انضمام الجامعة إلى وزارة المعارف عملاً من أعمال على ماهر وزير المعارف ، فإن ما ثار حول الجامعة بسبب الدكتور طه حسين قد دعا نائباً أو نواباً إلى اقتراح محاكمة على ماهر بما فعل للجامعة ، وبما غيّر من نظام التعليم العام من غير أن يكون ذلك من حقه الدستورى ... ولكنه ظل اقتراحاً لغير التنفيذ

* * *

ليست كل هذه الحوادث من تأليف الرافعي ، ولكنها شيء يتصل بتاريخه وله أثر فيه أيّ أثر ؛ فلولا ما كان من الخصومة بين الرافعي وطه ، لما قامت هذه الضجة ، ولا ثارت هذه الثائرة ، ولَمَا كان فى التاريخ الأدبى أو السياسى لهذه الحقبة شيء مما كان

على أن هذه المعركة قد خلفت لنا شيئاً آخر ، هو أغلى وأمتع ، ذلك هو كتاب : «المعركة تحت راية القرآن» وهو جماع رأى الرافعي فى القديم والجديد ، وهو أسلوب فى النقد سنتحدث عنه بعد

* * *

ولقد ظلّت الخصومة قائمة بين الرافعي وطه إلى آخر أيامه ، بل أحسبها ستظلّ قائمة ما بقيت العربية وبقى تاريخ الأدب ؛ فما هى خصومة بين شخص وشخص تنتهي بنهايتهما ؛ بل هى خصومة بين مذهب ومذهب سيظل الصراع بينهما أبداً ما دام فى العربية حياة وقدرة على البقاء

وما أعرف أن الرافعي وجد فرصة ليغمز طه فى أدبه ، أو وجد طه سانحة لينال من الرافعي فى فنه ومذهبه ، إلا أفرغ كل منهما ما فى جعبته . وكم مقال من مقالات طه حسين قرأه علىّ الرافعي فقال : اسمع ، إنه يعنيني . وكم مقال أملاه علىّ الرافعي أو قرأته له فوجدت فيه شيئاً أعرف مَن يعنيه الرافعي به . ومرة أو مرتين قال الأستاذ الزيات للرافعي : أرجو أن تعدّل فى أسلوب هذا المقال — مما ينشر فى الرسالة — فإني لا أحب أن يظن طه أنك تعنيه بشيء تنشره فى الرسالة وعلىّ تبعتُه عنده

ولما ثارت فى الجامعة فى العام الماضى مسألة المسجد والمصلى والدروس الدينية وفصل الفتيان عن الفتيات ، كتب الرافعي مقالا للرسالة غمز فيه طه وحيّا شباب الجامعة ، ولم يجد الأستاذ الزيات بُداً من نشره . وفُتن الرافعي بمقاله ذاك وحَسُنَ عنده وقعه ، فأنشأ تتمة له بعنوان «شيطان وشيطانة» يعني طه وتلميذته ، ولكن الزيات وقف له واحتج حجة ، رعاية للصديق القديم طه . وكان أول مقال يكتبه الرافعي فتزدّه له الرسالة . وقد اغتاظ الرافعي لذلك غيظاً شديداً ، وأحسبه مات وفى نفسه حسرة من عدم نشر هذا المقال . ولو كان لى أن أعرف أين أجد صورة هذا المقال لأوجبت على الرسالة أن تنشره بحق التاريخ الذى لا يحابي الأحياء ولا الأموات ، ولكن أين أجده ؟ الأستاذ الزيات يقول : لقد رددته إليه . والدكتور الرافعي يقول : لم أجده على مكتب أبي ؛ وما كان بين هذا المقال وبين أجل الرافعي إلا قليل

ولم يتلاق الرافعي وطه وجها لوجه فى النقد بعد هذه المعركة حول كتاب « فى الشعر الجاهلي » ، ولكن المعارك بينهما ظلت مستمرة من وراء حجاب ، تنتقل من ميدان إلى ميدان

ولما اشترك الرافعي فى المباراة الأدبية فى العام الماضى ، ونال فى بعضها من الجائزة دون ما كان يطمع ، لم ينسب ذلك لشيء إلا لأن طه كان عضواً فى اللجنة ... وطه خصم عنيد ...

* * *

أما بعد فهذا شيء للتاريخ أثبته على ما فيه ، ليس فيه رأيي ولا رأى أحد معي ؛ ولكنه شيء مما حكاه لى الرافعي أو قرأت فى كتبه ، فكتبته فى موضعه من هذا البحث بضمير المتكلم ومالى فيه إلا الرواية ، وذلك حسبي من العذر إن كان علىّ معتبة أو ملام

« شبرا » محمد سعيد العريان

ثورة على الأخلاق

للأستاذ علي صرطاوي

إلى الأخ محمود بواسطة الأستاذ الزيات

قرأ أصدقاؤك والمعجبون بأدبك في الأقطار الشقيقة شكواك البليغة في عدد الرسالة (٢٢٩)، فعتبوا عليك، وأسفوا أن تمر بسمائك سحابة صيف من مآسي الحياة في ظرف من الظروف الأليمة التي يطيش فيها حلم الحليم، فتحجب عن بصرك ذلك القبس الإلهي الذي كان يجتذب إليك أن تحترق كالشمعة لتنير الطريق إلى الذين لا يعرفون الفضيلة في الدنيا؛ وأن تتحمل كل ما في الألم من مرارة وما في الاضطهاد من معنى، في سبيل الأخلاق الفاضلة والذود عنها والدفاع عن حرمتها، فتنقلب في طرفة عين إلى خصم لدود يطعنها تلك الطعنات القاتلة، فكنت كالذي أوشك أن يتم جداراً لاقى النكد في بنائه، فانقلب إليه يهدمه إلى وجه الأرض لأن حجراً وقع عليه

لا يجادلك فيما ذهبت إليه في شكواك إنسان في الدنيا، ولا يوافقك على الأسباب التي ادعيتها علة النجاح من له دين وتفكير إلا إذا كنت تريد أن يتدهور البشر إلى مستوى العجماوات حيث يعيشون للطعام والشراب، وأن يتلاشى ذلك التراث الإنساني الثمين الذي ورثته البشرية عن الأنبياء والمصلحين.

إن نجاح التاجر الذي يغش ويسرق، والموظف الذي يتلون حسب الظروف، والظالم الذي لا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه، لا يقوم دليلاً على ما ذهبت إليه، ولا شأن للأخلاق فيه، إذ ليس ذنب الماء العذب أن يزعم مريض أنه كريه المذاق، ولا الشمس المشرقة أن يجادل في رؤيتها أعمى. فالذنب ياسيدي الكريم هو ذنب المجتمع المريض الذي يسمي الأشياء بغير أسمائها، فيرى الجبل شجرة، والحجرة كتاباً، والجمرة تمرة. ولو كان لنا مجتمع تعيش فيه الصراحة والجرأة الأدبية ويشرق عليه نور الخلق الفاضل والتربية العملية الدينية الصحيحة، لتضوّر أمثال هؤلاء جوعاً فيه

وزاغ الدكتور عزام طعنك في الأخلاق على النحو الذي قرأه الناس جميعاً، فأسرع يكتب إلى صاحب الرسالة كلمته البليغة لتصل إليك في العدد (٢٣٠) وظن القراء أن فيما أورده الدكتور من الآراء الصائبة ما يكفي لإرجاعك إلى الحق، والرجوع إليه فضيلة؛ وانتظروا أن يقرأوا ذلك في العدد (٢٣١) وإذا بصديقك الزيات يقول إن المجلس الذي أبلغك فيه رأي الدكتور، وكان حافلا بغيرك من رجال العلم والدين، كانوا لك وعليه، وأنك ظللت صامتاً ولم تحر جواباً

لقد أعجبني صمتك، لأن السكوت دليل على التسليم، ولكني لم أرض أن يزعم أن مجلسك كان حافلاً برجال العلم والأدب والدين، ويقول على لسانهم بأن السبيل (القاصدة إذن أن نطب لهذه الحال فيما يوائم بين طموح الناس وكرامة الأخلاق وسلامة المجتمع، وليس هناك إلا وسيلة من وسيلتين: إما أن نصد الناس جميعاً عن هذه الطرق المتعددة ونقصرهم على هذه الطريق الواحدة بقوة الأديان والسلطان والتربية، وذلك ما عناه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: «عليكم بالجادّة ودعوا البنيّات» وإما أن نعيد النظر في قانون الأخلاق فلعل فيه ما لا يرافق تقلب العصر وتطور المجتمع. فأما الوسيلة الأولى فقد سجل الماضي ودل الحاضر على أنها خيال نبيل لا يقع في الإمكان وحلم جميل لا تقوم عليه يقظة، وتعليل ذلك لا يغرب عنك فلا حاجة إلى تقريره. وأما الوسيلة الأخرى فهي على ما يرون مظنة التوفيق في الإصلاح الجديد)

يزعم أصدقاؤك أن إلزام الناس طريق الفضائل عن طريق الأديان والسلطان والتربية (خيال نبيل لا يقع في الإمكان، وحلم جميل لا تقوم عليه يقظة) ويؤكدون أن الماضي قد سجل ذلك، وأن الحاضر قد دلّ عليه ...

أما السلطان فأوافقهم على ذلك إذ:

لاترجع الأنفس عن غيها   مالم يكن منها لها زاجر

وأما الأديان، فأي ماض قد سجل ذلك؟ هل قرأ أصدقاؤك التاريخ العربي قبل الإسلام وبعده؟ من هم أولئك الذين كانوا يأكلون الدم والميتة، ويئدون البنات، ويتزوج العشرة منهم امرأة واحدة؟ ومن هم أولئك الذين صهرتهم حرارة الدين فأخرجت منهم أبا بكر وعمر، ووطئت خيولهم الصين وسهول

اللواء، وملأوا الدنيا والتاريخ عدلا، وخاطب خليفتهم في بغداد السماء بأن تمطر أنى تشاء فالخراج لهم؟

إذا تعلم أفراد المجتمع الدين تعلماً عملياً صحيحاً، وساروا على صراطه المستقيم، فعسير أن يعيش بين أفراده مثل من ذكرهم صديقك الزيات. فعلة العلل أننا لا نعرف الناحية العملية من الدين ... وهذا ما كان سبباً في تهكم أحد رؤساء الجامعات الأوربية على دروس الأخلاق النظرية التي وجدها في أحد برامج بعض المدارس العربية العالية ... إذ قال بأن الشرقيين لا يزالون في الضلال يعمهون حين يظنون أن في المستطاع تكوين الخلق الفاضل بعيداً عن الناحية العملية. وأما الحاضر الذي ذل على ضعف الدين، فهو حاضر لا يمت إلى الدين بشيء

والإصلاح الجديد الذي يراه أصدقاؤك يجلب على المجتمع الدمار والبؤس والفوضى التي يئن تحتها المجتمع الأوربي في مظاهر مدنية النار والحديد

ويرى أصدقاؤك في صلف الانجليزي العزة، وفي طموح الايطالي الرجولة، وفي طمع الفرنسي الحياة، وفي صراحة الألماني الهيبة، وفي استقلال الأمريكي الفوز، ويرون في قناعة العربي الاهمال، وفي زهده الحرمان، وفي مداراته الذل، وفي توكله العجز. ولست أظنهم ينصفون الحقيقة في هذا الرأي، فقياس الفضيلة هو مقدار الناحية العملية الصالحة منها، وحسب أصدقائك أن يقارنوا بين فضائل من ذكروا، وبين فضائل العربي وهو قريب من عهد الرسالة، وهي منتزعة من صميم الدين، والتي لا تمت بصلة إلى الأسماء التي تطلق عليها الآن، وهو على أبواب مدينة حمص حينما هاجها الروم للمرة الثانية، فتدفع تلك الفضائل العربي أن يعيد لأهل المدينة الجزية التي أخذها منهم، فيرفضون أخذها ويدفعون الروم بكل ما يملكون. والأمثلة كثيرة، وثقافتك الواسعة وعروبتك الصادقة في غير ما حاجة إلى إقامة دليل

وأما الربا فيريدون ألا يظل في عصر الاقتصاد رذيلة، وحجتهم أن الغرب لم يستعبد الشرق إلا عن طريق بنوكه، وأن ربح الأموال التي كانت تضيع على المسلمين في البنوك، لو صرفت على طرق الاصلاح ووجوه البر لما بقي أجنبي في أرضهم ولما ظل تحت سمائهم فقير. والواقع لا يدل على ذلك أبداً، فلقد حرم الدين الربا لحكمة لا نستطيع بعقولنا المادية المحدودة إدراكها. ويجب أن يبقى كذلك عملاً بأوامر الدين. وأما استعباد الشرق عن طريق البنوك، فمسئلة فيها نظر وليست قضية مسلمة، ودليل ذلك أن الانجليز كانوا يطمعون في مصر منذ سنة ١٨٤٥. ويقرأ ذلك من يشاء في رحلة الاسكندر وليم كنج لاك Alexander William King Lake في بلاد الشرق الأدنى في السنة المذكورة التي سماها (يوثين) Eothen، حيث تنبأ وهو أمام أبي الهول باحتلالهم مصر قبل أن تشق قناة السويس. وأما طرق الاصلاح ووجوه البر، فلو صرفت عليها الزكاة التي فرضها الدين لما بقي فقير بين المسلمين

وبعد فسيظل الخلق الفاضل عدة النجاح ما دام هنالك دين في الدنيا والسلام عليك.

«جنين» **علي صرطاوي**

أناشيد صوفية

جيتانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٤٩ —

لقد هبطت عن عرشك لتقف بازاء باب كوخي

كنت جالساً وحدى فى زاوية أترنم بألحان ألقيت أنت إليها سمعك فهبطت عن عرشك لتقف بإزاء باب كوخي

وفى فنائك احتشد العظماء والأغانى تتردد هنالك فى كل حين ؛ غير أن لحناً بسيطاً ارتفع بين هذه الأغانى فجذبك إليه ؛ هو لحن قصير فيه الشجن اختلط بموسيقى العالم العظمى فهبطت ومعك هدية من زهر ... هبطت لتقف بازاء باب كوخي

— ٥٠ —

وانطلقت أتكفف الناس وأنتقل من باب إلى باب على طريق القرية . ثم بدت عربتك الذهبية عند الأفق كأنها الحلم اللذيذ فعجبت : تُرى من يكون ملك الملوك هذا!

ولع الأمل فى نفسى وخُيِّل إلىّ أن أيام السوء قد انقضت فوقفت أنتظر الهبات ، وهى تعطى فى غير سؤال ، والمال وهو ينثر هنا وهناك

ووقفت العربة بازائى . وحين وقع بصرك على دلفت نحوى وعلى شفتيك ابتسامة ، فاستشعرت السعادة فى نفسى ؛ وعلى حين فجأة مددت إلىّ يمناك وأنت تقول : « ماذا عندك لتهبه لى ؟ »

آه ! إنها دعابة ظريفة أن تمد يدك تسأل شحاذاً . واضطربتُ وسيطرت علىّ الحيرة ثم تناولت من سلتى أصغر حبة قمح ... تناولتها فى بطء وقدمتها إليك

لشد ما عجبتُ حين أفرغت سلتى عند الغروب ، فألفيت بين متاعى الحقير حبة من ذهب فى قدر حبة القمح ، فرحت أبكى فى حُرقة وأسى لأنى لم أجد فى نفسى القوة على أن أقدم اليك كل ما أملك

— ٥١ —

أظلم الليل وانتهى عملنا اليومى ، وخيل إلينا أن آخر ضيف قد قدم لأن أبواب القرية غلِّقت ؛ غير أن قائلا قال: «سيأتى الملك» فسخرنا منه وقلنا : « لا ، لا يمكن ! »

وبدا لنا كأن طارقاً يدق الباب فقلنا إنه الريح ؛ ثم أطفأنا المصابيح وانطلقنا إلى الفراش ؛ غير أن قائلاً قال : « إنه رسول ! » فضحكنا منه وقلنا : « لا ، بل هى الريح ! »

وفى أعماق الليل دوى صوت تخيل إلينا – والنعاس يغالبنا – أنه هزيم الرعد ؛ ثم زلزلت الأرض زلزالها ، واضطربت الحيطان ففزعنا عن مراقدنا ، وقال قائل : « إنه صوت عربات » فقلنا فى صوت الحالم : « لا ، إنه جلجلة السحب ! »

وفى جوف الليل رنّ فى مسامعنا دوى الطبل ، ونادى مناد : « هبوا ، لا تنوا ! » فوضعنا أيدينا على قلوبنا والخوف ينفضنا نفضاً شديداً ، وقال قائل: « ويلى ، هاهى ذى راية الملك تخفق ! » فاندفعنا نصيح : « لقد أزف الوقت فلا تتكاسلوا ! »

لقد جاء الملك ، ولكن أين المشاعل ؟ أين الأكاليل ؟ أين العرش ليستوى عليه ؟ يا للفضيحة ، يا للعار ! أين الدار ؟ أين الزينة ؟ فقال قائل : « عبثاً تصيحون ، حيوه بأيد فارغة وادعوه إلى حجراتكم المعطلة ... »

افتحوا الأبواب ، واعزفوا الألحان ؛ ففى جوف الليل جاء الملك إلى بيتنا الموحش المظلم . إن الرعد يزمجر فى السماء ، وإن البرق يمزق أستار الظلام . هات فراشك البالى وافرشه فى الفناء ؛ فهو قد جاء على حين بغتة مع العاصفة الهوجاء ... هو رب الليل الحالك المهيب ...

— ٥٢ —

لقد أردت أن أطلب إليك عقد الورد الذى تحلى به جيدك غير أنى لم أجسر ، فانتظرت حتى تبرح عند الصباح . وحين غادرت وجدت بقايا منثورة على الفراش ، وفى السحر رحت أفتش عن الوريقات المفقودة كأنى شحاذ

آه ، ماذا وجدت ؟ ماذا تركت ذكرى هواك ؟ إنك لم تترك الزهر ولا العبير ولا زجاجة عطر بل سيفك العظيم يتألق كشعلة من لهب ، وهو ثقيل كالصاعقة . لقد اخترق نافذتى أول شعاع فتىٍّ من أشعة الصباح فهمَّ الطير يستفسق ويسأل : « أيتها الفتاة ، ماذا أصبت ؟ » لا ، لم يكن الزهر ولا العبير ولا زجاجة عطر ، بل هو سيفك المهيب

وجلست أفكر فى دهشة : ماذا عسى أن تكون هذه الهدية ؟ لم أجد له مخبأ ، وإنى لأخجل أن أتقلده وأنا حطام متهدم ، وإنه ليؤذينى إن ضممته إلى صدرى ، ولكنى سأحمل فى قلبى هذا

الشرف ... هذا العبء الثقيل من الآلام ... هذه الهدية الغالية

والآن لم يبق فى هذه الدنيا ما أخافه لأنك أنت نصيرى . لقد نزعت عن رفيق الموت ، فسأفديه أنا بروحى . إن سيفك معى لأحطم به قيودى فلا يبقى فى هذه الدنيا ما أخافه

سأنزع عن نفسى — منذ الآن — زخرف الحياة ؛ ولن أتوارى بعد — يا مليك القلب — فى ركن أبكى ، ولن أستحيى أو أرقق من خالق فأنت قد حبوتنى سيفك لأزين به فلن أتحلى بسواه من زينة الحياة

ما أجمل سوارك وقد زينته النجوم ، ورصعته كواكب الحلية ؛ غير أن سيفك أحلى منه فى عينى وهو يلمع كأنه جناح طير ڤينشو (1) المقدس ، وقد انتشر فى أشعة الغروب الحمراء

إنه يضطرب كأنه آخر أحاديث الحياة حين يسيطر الألم على الإنسان فى ساعة الاحتضار فيذهله عن نفسه ؛ ثم هو يتألق كأنه شعاع الوجود الطاهر حين يرسل شرارة حامية فتلتهم كل العواطف الأرضية

ما أجمل سوارك وقد زينته كواكب الحلية ؛ غير أن سيفك — ياإله الرعد — قد رصع بجمال باهر يفوت الوصف ويفوق الخيال

— ٥٣ —

لن أطلب إليك شيئاً ؛ ولن أذكر اسمى عند مسمعيك . وحين تنأى عنى سأقف فى صمت . لقد كنت لدى البئر وحدى والظل وارف ، والفتيات ينطلقن إلى دورهن ، يحملن جرارهن المترعة ؛ لقد ناديننى : « تعال معنا ، إنه يضنيك أن تنتظر من لدن الصباح حتى الظهر » غير أنى ترددت حيناً ثم ذهلت عن نفسى وسط الخواطر المضطربة

ما سمعت دبيبك حين جئت ، وكان فى نظراتك الأسى حين وقع بصرك علىّ ، وكان فى صوتك أثر الأين والتعب حين قلت : « آه ، إننى مسافر ظمآن » ففزعت عن أحلامى لأصب الماء فى كفيك ، فخفّت الأوراق من فوقنا ، وانبعث شدو الطير يمزق سكون الظلام ، وفاح أريج عطر الزهرات من منعطف الطريق

ووقفت صامتاً فى خجل حين سألتنى عن اسمى ، ماذا أسديت إليك فتسأل عن اسمى لتذكرنى ؟ ولكن ذكرى الماء الذى أطفأت به حرّتك ستعلق بقلبى وتبعث فيه الرضى . إن ساعات الصباح قد انطوت ، والطير يغرد فى كلال ، والأوراق تحف من فوق ، وأنا جالس إلى نفسى أفكر وأفكر

— ٥٤ —

مازال الفتور يسيطر على قلبك ، والنعاس يستولى على عينيك

أفلم يبلغك أن الزهرة تحكم بين الشوك فى كبرياء ؟ استيقظ ؛ أوه ، انتبه ! لاتدع الزمان يمر عبثاً

عند نهاية الطريق الصخرى وفى بلاد الوحدة الطاهرة ... هناك يجلس صاحبى فى عزلة ، فلا تخدعه . استيقظ ؛ أوه ، انتبه !

ماذا لو أن السماء تلهبت واضطربت فى قيظ الظهيرة المحرق ... ماذا لو أن الرمال المتأججة نشرت لظى الظمأ ...

أفلا تجد الطرب فى قرار قلبك ؟ أفلا تتفجّر قيثار الطريق — فى كل خطوة من خطواتك — عن لحن شجى فيه الألم ؟

— ٥٥ —

إن رغبتك تامة فىّ ، وإنه أنت الذى هبطت إلىّ ؛ فمن عسى أن يكون حبيبك — يا إله الملك — إن لم أكُنْه ؟

لقد اتخذتنى لك شريكا أقاسمك هذا الثراء العريض ؛ ففى قلبى السرور اللانهائى أستمده منك ، وفى حياتى مشيئتك تسيطر علىّ

لهذا زينت نفسك — وأنت ملك الملوك — بالجمال الخلاب لتأسر قلبى ، ولهذا بذلت حبك فى سبيل مَن تحب ، فظهرت للأعين كائنين امتزجا معاً

— ٥٦ —

أيها النور ، أيها النور الذى تشرق على العالم ، وتقبل العيون وتنفث البهجة فى القلوب !

آه ، إن النور يرقص — يا عزيزى — فى أعماق حياتى ، إنه يضطرب بين أوتار قلبى ؛ إن السماء تنفرج ، والريح تهب عاصفة ، ورنات الضحك تتردد على الأرض

إن الفراش ينشر أجنحته على لجة النور ، والزنبق والياسمين يضطرب فوق موجها

لقد تحطم النور فوق كل سحابة — ياعزيزى — إلى قطع من لجين استحالت إلى جواهر تتألق

إن البهجة تتناثر — يا حبيبى — على أوراق الشجر فيعم السرور ، وإن نهر السماء يفيض على شاطئيه فيملأ الطرب كل مكان

كامل محمود حبيب

(1) ڤينشو : أحد آلهة الثالوث الهندى

فلسفة التربية

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٤ —

جولة في أغراض التربية

أوردت لك فيما سبق تفسير الفلسفة للتربيه ، وكشفت عما بينهما من علاقة ، وأبنت ضرورة الأولى للثانية ، ثم تناولت الثانية ذاتها ببعض الشرح والتحديد . وأحب اليوم أن أجول بك في « أغراض » هذه « العملية الكبرى » التي اصطلحنا على تسميتها بالتربية والتعليم !

لِمَ يتعلم الناس ؟ وفيم تقام لهم هذه المدارس وتلك الجامعات التي تنفق فيها الجهود الطائلة والأموال الجسيمة ؟ أظنك قد أصبحت ترى معي أن من حق الفلسفة بل من واجبها أن تناقش ما عسى أن يكون لهذه « العملية الكبرى » من أغراض ، علها تستطيع أن تهدينا إلى « الغرض الأسمى » !

والحق أنه إن لم يكن للتربية غرض واضح محدود صريح فإن عمليتها لا تعدو أن تكون ضرباً في الهواء مصيره الفشل المحتوم ! ؛ ولما كانت حياة « الأفراد » على ظهر الأرض واحدة لا رجعة لها ولا تكرار ؛ ولما كانت « التربية » هي الأداة التي تعدنا لهذه الحياة الواحدة القصيرة ، فإنه لا شك في ضرورة « إيجاد » ذلك « الغرض الأسمى » الذي نستطيع به — وبه وحده — أن نستغل « العمر » إلى أبعد حدود الاستغلال ، وأن نتمتع به إلى أقصى وأرفع حدود التمتع

ولكنك تعلم أن الفلسفة حينما تعرض لمثل هذا « المشكل » لا تستطيع أن تنجو من ذلك « التباين » الهائل الذي يبدو في أغلب مذاهبها

يقول الأستاذ بولزن Paulsen في أسلوب عذب رشيق[١] « يريد المرء أن يلعب ويتعلم ، وأن يعمل ويكتسب ، وأن يملك وينعم ، وأن يكون ويخلق ، وأن يُحب ويعجب ، وأن يطيع ويحكم ، وأن يجاهد ويفوز ، وأن يردد الشعر ويحلم ، وأن يفكر ويبحث وأن يجرب علاقة الابن بأبيه ، والتلميذ بأستاذه ، والخادم بسيده ، وأن يعيش قنوعاً ؛ أخا بين أخوة ، وصديقاً بين أصدقاء ، وزميلاً بين زملاء ، ومواطناً بين مواطنين ، وحبيباً وعدواً ، وزوجاً ووالداً ومربياً ؛ كل ذلك على نحو طبيعي خاص ؛ فإذا ما تحقق له ذلك شعر أن حياته قد كملت ، وانتظر النهاية الأخيرة برضا وارتياح ، لأنه سيلحق بعدها بآبائه وأجداده . »[١]

وأنت ترى أن ذلك الغرض طويل غير مجمل وإن كان صحيحاً في كل أجزائه ، وأنه يرمي إلى تكوين الفرد الاجتماعي الناجح السعيد .

ويقول فيخته Fichte [٢] « إن غرض التربية هو تكوين الوطني العارف بحقوق الوطن وواجباته » . ولكن من ذا يستطيع أن يحصر الحياة في دائرة الوطنية فحسب ؟ أليست الوطنية إحدى نواحي الحياة الشاملة الفسيحة ؟

ويقول هربارت[٣] « إن غرض التربية هو تكوين إنسان عارف بحقوق الإنسانية ؛ وإن غايتها القصوى هي اكتساب الفضائل والتحلي بمكارم الأخلاق » . ولكن ترى ما هي حقوق الإنسانية التي يتركها لنا هربارت غامضة من غير ما تفسير ؟ وإذا كانت الأخلاق هي غاية التربية القصوى ، فأين يقع « التفكير الخالص » من هذه الغاية وقد وضعه « ارسطو » فوق جميع الغايات عند ماينصب على أسمى موضوعات التفكير وهو الله ؟

ويقول ديوي Dewey « إن غرض التربية الأسمى هو النمو[٤] » ولكن ما معنى النمو وما مقياسه المضبوط ؟ يلمس « ديوي » بنفسه ذلك الغموض ويرسم لنا مثلا أعلى « للإنسان النامي » فإذا هو « كائن ذو عادات بصيرة حساحة بعيدة النظر خاضعة لمسئوليات أكثر » . وذلك قول جامع ولكنه لا يخلو مع ذلك من غموض ...

ويقول الأستاذ ريدجر Ruediger [٥] « تلائم التربية بين

(١) أنظر A Louree Book of The Philos. of Educ at, on by Kilpatrich فصل أغراض التربية

(١) قد تصرفنا في الترجمة قليلا

(٢) أنظر كتاب الأستاذ المعروسي في التربية والتعليم

(٣) أنظر كتاب الأستاذ المعروسي أيضاً

(٤) أنظر مقالة في فلسفة التربية بدائرة معارف منرو للتربية

(٥) أنظر كتابه The Principles of Education

الفرد وبين عناصر البيئة المعترف بها في الحياة الحديثة ، وهي تعمل على تنمية وترتيب وتدريب قواه حتى تصبح ذات «فاعلية» مشروعة النفع » وذلك أيضاً قول دقيق لولا ما قد ينتاب « هذه الملاءمة » من القضاء على روح الثورة في الناشئ . تلك الثورة التي نريدها منه كلما رأى ماهو جدير بها في حياة المجتمع

ويقول الأستاذ توربندايك « إن أقصى غايات التربية هو غرس رغبة « الخير » وتكوين القدرة على الحياة السعيدة والمتعة النبيلة البريئة » ولكن ترى ماهي الحياة السعيدة ذات المتعة النبيلة البريئة ؟ أما نحتاج هنا لتحديدها ؟

أما « سبنسر » فيلسوف التطور فيقول « إن غاية التربية هي أولا وقبل كل شئ حفظ الحياة » . ولكن من الثابت الواضح أن « حفظ الحياة » وسيلة وليس بغاية ؛ إذ في سبيل أي شئ نحفظها ؟ يقول سبنسر نفسه : « إن واجب التربية هو الاعداد للحياة بأوسع معانيها . وأهم مافي الحياة هو الحكم الصائب في كل الاتجاهات وجميع الظروف ، ثم تربية الجسم والعقل ، ثم الإعداد للعائلة والسعادة والوطن وخدمة المجتمع » وذلك كلام له وجاهته الخاصة دون ماشك . ولكن ألسنا نرى فيه إغفالا أو شبه إغفال لناحية الشعور بما فيه الدين ؟

ويبسط لنا الأستاذ ريدجر Ruediger غرض الملاءمة الآنف في فصل طريف فحواه الحياة بالعقل والروح ثم بالجسد في جو خلق دائب التجدد ، يقوم فيه الدين إلى جانب الفن ، ويتسلط فيه الإنسان تسلطاً عاقلاً على البيئة ، شاعراً أنها وطنه الذي يجد فيه المتعة العقلية والفنية ، منتفعاً في نفس الوقت بكل مافيها مما يفهمه ويقدره

أما الأستاذ Angel فيقول إن غرض التربية « هو النمو المتشابه لقوى الفرد » وذلك قول له طرافة من الناحية النفسية التي تطالبنا بإيجاد التوازن بين قوانا بحيث لا يطغى فيها العقل على العاطفة ، أو العاطفة على العقل [1] ، ولكنه لا نزال بعد مفتقراً إلى « تشريع » يوجه هذا النمو المتشابه في نواحيه المنشودة

وأما أبناء العم سام فأغراض التربية عندهم هي :

(١) عضوية الأسرة الناجحة (٢) المهنة الموفقة (٣) الفراغ الممتع (٤) التمدن العاقل (٥) الصحة الحسنة (٦) المعاملات الطيبة

ولكن واضح أن ذلك المستوى شعبي بحت لا يتناول « الفكر الراقي » كما ينبغي أن يتناوله

***

وتلك كما ترى آراء كثيرة توسع من مدى فكرنا وإن كانت لا تقف به عند رأي حازم جازم لأن طبيعة « الغاية الأخيرة » ذاتها تتطلب ذلك الخلاف ما دام أن الأفراد أنفسهم هم الذين يتناولونها بالبسط والتحديد لأنها غايتهم . ويشعر الأستاذ دوي Dewey نفسه بصعوبة الموقف فيقول : « ليس للتربية غاية أو غرض خاص ، ولذلك يجب أن نأخذ في حسابنا نشاط من يراد تعليمهم وحاجاتهم الطبيعية والاكتسابية عند ما نحدد للتربية والتعليم أغراضهما »

ويعقب الأستاذ يعقوب فام على هذا الرأي بقوله [1] : « ليس التعليم منفصلاً عن الحياة حتى يقال إنه وسيلة لها ، بل هو والحياة أمر واحد » ومعنى ذلك أن غاية التربية هي هي غاية الحياة . فترى ما ذا عسى أن تكون تلك الغاية ؟ أهي ذلك الثالوث الأقدس الذي ينادي به الأستاذ فيكتور كوزن في كتابه الطريف [2] ثالوث الخير والحق والجمال ؟ أم هي « التفكير الخالص » في أسمى موضوعات التفكير كما يقول أرسطو ؟

ومهما يكن من شيء فإن الأستاذ « دوي » يعطينا مقياساً طريفاً نطبقه على الأغراض « المطروحة » لنختبرها به وهو :

(١) قيام الغرض على الظروف الراهنة (٢) وقدرته على القيادة والمرونة (٣) والاتفاق التام بينه وبين الوسيلة . ثم هو يعطينا مقياساً آخر نقيس به مواد الدراسة هو « درجة وطريقة ماتجلبه على الطالب من شعور بيئته الاجتماعية ، وما تمده من قدرة يفسر بها قواه الخاصة من ناحية قابليتها لخدمة المجتمع » ويفسر لنا الأستاذ « باجلي » مدى هذه « القابلية » بقوله : « إنها تتضمن أن يكون المرء فاعلاً في المجتمع منتجاً أو مرشداً الناس إلى الإنتاج ، متدخلاً في مجهودات الآخرين بأخلاقه الصالحة ، عاملاً على تكميل القوى الاجتماعية أي إنجاح الجماعة » ويعزز الأستاذ دوي نفسه ذلك الرأي بقوله : « أعتقد أن كل تربية يجب أن ترمي إلى مشاركة الفرد في الوجدان الاجتماعي »

(١) في غير النواحي الخلقية بالطبع

(١) انظر « التربية والأخلاق » للأستاذ

(٢) أنظر « V. Lonsin - Du Bien, Du Vei, et du Beau »

ولا بأس من أن نختم هذا الفصل بقول الأستاذ Kerschensteiner [1] وهو : « أننا لا نستطيع أن نحصر أغراض التربية فى غرض واحد، وكل ما هنالك أن التربية يجب أن تشمل الإبقاء على الماضى إبقاء لا يسترعيوبه ولا يعمينا عن خيرات الحاضر ، ثم الوقوف على الأزمنة والبيئات والطبقات المختلفة حتى نوسع من مدى اتصال الناس بعضهم ببعض ، ثم تمدين ومحو الوحشية من بينهم ، أى انتشال العقول من الأودية المظلمة ، والعواطف من الغرائز الحيوانية ، ثم غربلة الناشئين وتوجيه كل منهم إلى الطريق الذى يتفق وميوله الخاصة حتى يبلغ أقصى ماهو كفء له ، ثم غرس العادات الحسنة من غير استعباد الناشئ لها »

* * *

وبعد ، فماذا تريد أن أقول ؟ وأى الأغراض تحب أن أزجيها إليك ؟

أليس من الخير أن نترك هذا الباب مفتوحاً لرجال التربية فى الشرق ، كيما يدلوا فيه بآرائهم السديدة ، ويرسموا لنا تلك « الغاية الأخيرة » التى يجب أن ينشدها الشرق فى تربيته على الخصوص ؟

ثم أنت ترى المعاهد فى مصر كثيرة والخريجين أكثر ، فهل تستطيع أن تتبين وراء تلك المعاهد « غرضاً واضحاً محدوداً » وهل تستطيع أن تتلمس « الطريقة » التى يحقق بها هذا الغرض وما عسى أن يكون فيها من ضعف وقوة ؟

أحب أن تفكر فى هذا قليلا . لا ، بل كثيراً

« شبرا » **محمد حسن ظاظا**
مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

(١) أنظر كتاب Thomson - Amodern Philos. of Ed.

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشة

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الرؤى والألغاز

— ١ —

وعند ما تناقل البحارة خبر وجود زارا بينهم وكان بلغهم ذلك من رجل دخل السفينة معه قادماً من الجزر السعيدة ساد الجميع شيء من القلق وباتوا يتوقعون حدثاً فى وجوده ، غير أن زارا بقى يومين جامداً تساوره أحزانه ؛ تحدق فيه الأنظار فلا يلتفت ، وتوجه إليه الأسئلة فلا يجيب . وأخيراً أصغى لما يقال حوله متوقعاً سماع أبحاث لها خطورتها تدور على هذه السفينة القادمة من بعيد والمتجهة إلى أماكن سحيقة . وما كان زارا لينفر من الأسفار البعيدة ومن الأخطار ، وبعد أن أصغى طويلاً حلت عقدة لسانه فانطلق يقول :

— إليكم أيها الشذاذ الجريئون أيا كنتم ، أيها المستسلمون للشراع الغدار على هائجات الأمواج

إليكم أيها الثملون بخمرة الأسرار ، المنجذبون بين خيوط الظلمات والأنوار ، إلى نغمات كل شبابة تنوح فى المجاهل الخفية .

إنكم تنفرون من تلمس طريقكم بيد مرتجفة على ما نصب من دليلات الحبال إذ تفضلون الإدراك بالحس على الادراك بالإستقراء

إليكم دون سواكم أوجه الخطاب لأخبر بما تجلى من ألغاز وبما خطر من رؤى لأشد الناس استغراقاً فى عزلته .

لقد اجتزت الغسق فى أشد فتراته وجوماً . إقتحمته وقد تقلصت شفتاى وعلا وجهى الاغبرار وكنت شاهدت من قبل شموساً كثيرة تجنح إلى الغروب

رأيت أمامى طريقاً يتسلل على جروف المرتفعات ، طريقاً وعراً تعرى جانباه من كل نبات فدفعت عليه أقدامى أتحداه فأسمع صريف حصاه تحتها .

مشيت صامتاً أحاول تثبيت الحصى المتطايرة بخطواتى لأنجو من الانزلاق عليها

واعتليت فاذا بروح الكثافة وهو عدوى الألد يشد بى إلى الأعماق ، واعتليت أيضاً فاذا بهذا الروح المطبق علىّ كالقزم من الناس والخلد من سكان الأوجار يسكب فى أذنى ودماغى كلمات ثقيلة كالرصاص فسمعته يقول لى متمهلاً هازئاً :

أى زارا أيها الحجر المدعى الحكمة ، لقد رشقت نفسك إلى ما فوق ، ولكن أى حجر ارتفع ولم يسقط عائداً إلى مصدره ؟

أى زارا أيها الحجر الحكيم المنقذف إلى العلا لزعزع الكواكب فى مدارها ما أنت إلا القاذف والمقذوف معاً ، فلا بد لك من السقوط ككل حجر يرشق إلى ما فوق . لقد حكمت بالرجم فكان حكمك به على نفسك ، وهذا الحجر الذى فوّقته سيرجع ساقطاً عليك

وسكت القزم طويلاً حتى ضاقت من سكوته أنفاسى ، فالرفيق الصامت يشعرك بوحشة الانفراد أكثر مما تشعر بها وأنت وحدك لا رفيق لك

وارتقيت أيضاً وأنا تائه فى تفكيرى وأحلامى شاعراً بتزايد الضيق فى صدرى كأننى عليل نبهته أضغاث أحلامه فاستفاق ليشعر بأوجاعه

غير أننى أعهد بنفسى قوة أسميها شجاعة وهى القوة التى أرغمت بها كل وهن فى نفسى ، بهذه الشجاعة تدرعت فصحت بالقزم قائلاً :

إن واحداً منا يجب عليه أن يتوارى

ما من قاتل كالشجاعة التى تهاجم ، وما من فيلق يتقدم إلا وفى طليعته الأنغام الحادبات

إن أوفر الحيوانات شجاعة إنما هو الانسان الذى قهر بشجاعته سائر الحيوانات وتغلب على جميع الأوجاع ماشياً وراء حاديات الأنغام بالرغم من أن أوجاع الانسان أشد ما فى الكون من أوجاع

وللشجاعة أيضاً فضيلة ردع الدوار المستولى على الرؤوس حين تحدق فى الأعماق ، وما من موقف للانسان لا هاوية تحته وما عليه إلا أن يحدق ليرى المهاوى من أى موقف فى مواقفه .

إن الشجاعة خير مايقتل فانها تقتل الاشفاق أيضاً ؛ وما من هاوية أبعد قراراً من الاشفاق لأن نظر الانسان ليذهب وهو يسبر الآلام إلى أقصى مدى يبلغه عند سبره الحياة نفسها

إن خير مايقتل إنما هى الشجاعة إذا هاجت ، لأنها ستتوصل أخيراً إلى قتل الموت نفسه لأنها تقول فى ذاتها : « ياللعجب ! أهذا ما كانت الحياة ؟ إذن لأرجعن إليها مرة أخرى » إن فى مثل هذه العقيدة أشد حداء يدفع إلى الإقدام . من له أذنان سامعتان فليسمع

— ٢ —

واستوقفت القزم قائلاً : يجب أن يبقى أحدنا ويفنى الآخر . إننى أنا الأقوى لأنك لا تدرك أعمق أفكارى ، وما أعمقها إلا فكرة لا قبل لك باحتمالها . فارتمى القزم عن كتفى نخف حملى ، فإذا بهذا القزم يجلس القرفصاء على حجر أمامى ، وإذا نحن تجاه باب كأنه وجد صدفة هناك فقلت لرفيقى :

أنظر إلى هذا الباب فإن له واجهتين ، وهنا ملتقى مسلكين لم يبلغ إنسان أقصاها ، أحدهما منحدر يمتد إلى البرية ، والآخر مرتفع يمتد إلى البرية الأخرى ، والمسلكان يتعارضان متقاطعين عند هذا الباب وقد كتب اسمه على رتاج واحد « الحين »

فقلت : أتعتقد أيها القزم أن من يتوغل فى إحدى هذين المسلكين يبقى معتقداً بأن اتجاه أحدهما معارض لاتجاه الآخر ؟

فقال القزم بازدراء : إن كل اتجاه على خط مستقيم إنما هو اتجاه مكذوب ، فالحقيقة منحرفة لأن الزمان نفسه خط مستدير أوله آخره

فأجبته قائلاً : لا تستخف بالأمر أيها الروح الكثيف وإلا غادرتك فتعطب حيث أنت ، ولا تنس أننى أنا حملتك إلى الأعالى . تفكر فى « الحين » الذى نحن فيه الآن ، فإن من بابه يمتد سلك أبدى لا نهاية له متراجعاً إلى الوراء ، فإنما وراءنا البرية يا هذا

أفما كان لزاماً على كل شىء معتزم بمعزفة السير أن يجتاز هذا السلك فيما مضى؟ أفما تحتم على كل شىء له طاقة الوصول أن يكون قد وصل فيما مضى فأتم سيره وعبره ؟

وإذا كان كل موجود الآن قد وجد من قبل فما هو اعتقادك فى هذا الحين ؟ أفما كان لهذا الباب وجود سابق ؟

أفما ترى الأشياء كلها متداخلة ، وأن هذا « الحين » يجر

وراءه كل ما سيكون ، بل يجر نفسه أيضاً ؟

أفما يتحتم والحالة هـذه على كل معزز بقوة السير أن يندفع مرة أخرى على هذا المسلك المتجه إلى فوق ؟

أنظر إلى هذه العنكبة التي تدب على مهل تحت شعاع القمر ! أنظر إلى شعاع القمر نفسه وإلى ذاتى وذاتك مجتمعتين تحت هذا الباب تهامسان بأسرار الأبد ! أفما نعتقد أنه لابد أن نكون وقفنا جميعاً من قبل فى هذا المكان ؟

أفليس علينا أن نعود أيضاً للتدفع تكراراً على المسلك الآخر الذاهب أمامنا متصاعداً مستطيلاً مروعاً ؟ أفما لزم علينا أن نعود تكراراً وأبداً ؟

هكذا كنت أتكلم بصوت يتزايد انخفاضه وقد أرعبتنى أفكارى وما كمن وراء أفكارى فإذا بى أسمع فجأة نباح كلب على مقربة منا

خيل إلى أننى سمعت مثل هذا النباح من قبل، ورجعت بتذكارى إلى الماضى فإذا هو يسمعنى هـذا النباح فى أبعد أيام طفولتى ويمثل لى مثل هذا الكلب الذى أراه الآن وقد وقف شعره ومد رقبته مرتجفاً فى أشد الليالى سكوناً حيث يتراءى للكلاب أيضاً أن فى العالم أشباحاً

وتنبه نباح الكلب اشفاقى إذ تذكرت انه عنـد ما عوى منذ هنيهة كان القمر يطل من وراء البيت صامتاً كالموت ؛ ومنذ هنيهة كان هذا القمر يستقر فوق السطح كقرص ملتهب راود ما ليس له ، وذلك ما أثار غضب الكلب لأن الكلاب تؤمن بالسارقين والأشباح

عند ماسمعت هذا النباح للمرة الثانية عاودنى الاشفاق تكراراً

أين توارى القزم الآن ومعه الباب والعنكبة وأحاديث المناجاة؟ أكنت فى حلم فاستفقت فأنا الآن وحيد بين جرداء الصخور لاسمير لى غير شعاع القمر المنفرد فى السماء

ولكننى رأيت رجلاً مسجى على الأرض وكان الكلب يقفز وقد اقشعر جلده وهو يهدر هدراً ، وإذ رآنى قادماً نحوه بدأ بالنباح فتساءلت عما إذا كنت سمعت من قبل كلباً ينبح بمثل هذا الصراخ المستغيث

والحق أن ما رأيت فى ذلك المكان ما كنت رأيت مثله ، لأننى شاهدت أمامى راعياً فتياً ينتفض محتضراً ، وقد ارتسم الروع على وجهه وتدلت من فمه أفعى حالكة السواد، فتساءلت عما إذا كنت رأيت قبل الآن مثل هذا الاشمئزاز والشحوب على وجه من الوجوه . لعل هذا الراعى كان يغط فى رقاده عندما انسلت الأفعى إلى حلقه وانشبكت فيه

وبدأت أسحب الأفعى بيدى ، ولكننى شددت عبثاً ، فسمعت من داخلى صوتاً يهيب بالراعى قائلاً : عض عليها بأسنانك ولاتنى حتى تقطع رأسها ، وهكذا سمعت بهذا الهتاف أصوات رعبى واشمئزازى وضغينتى وإشفاقى كأنها صوت واحد يتعالى منى

فيا أيها الشجعان المحيطون بى، أيها الشذاذ المكتشفون يامن تقتحمون مجاهل البحار مستسلمين للشراع الغدار وأنتم تسرون بالمعميات والألغاز، عبروا رؤى المنفرد وحلوا ما رأى من معميات وقد كمن فيها ما كان وما سيكون

أىّ هذه الرموز يدل على ما فات وأيها يدل على ما هو آت ؟

من هو الراعى الذى اندسّت الأفعى فى فمه ، ومن هو الإنسان الذى سيصاب بمثل هذه الداهية الدهياء ؟

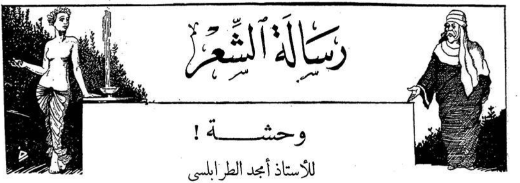
على أن الراعى بدأ يشد بأسنانه منفذاً ما أشرت به ، وما لبث أن تفل دافعاً برأس الأفعى إلى بعيد ، ثم انتفض ووقف على قدميه

وتبدلت هيئة الراعى فلم يعد راعياً حتى ولا إنساناً ، إذ جلله الإشعاع وضحك ضحكة ما سمعت حياتى مثلها

لقد سمعت يا إخوانى ضحكة ليست من عالم الإنسان ولم أزل منذ ذلك الحين أحترق بشهوة لا أجد ما يطفئها . إن شهوة هذه الضحكة تنهش أحشائى فكيف أرضى الموت بعد الآن

هكذا تكلم زارا

« يتبع » فليكس فارس



رسالة الشعر

وحشة !

للأستاذ أمجد الطرابلسي

ما أرى الينبوع فى هذى الفلاه … فالتمسه اليوم في أعماق نفسك !

أيها الغربانُ يا شؤمَ الربوعِ … انعبي ما شئتِ في صدري وقرّى
يُنشدُ الشاعرُ في عرسِ الربيع … وأنا أستلهِمُ الوحشةَ شعرى !

إيهِ يا نضوَ الفلا حسبُك صمتا … غنِّ فى الوحدةِ ألحانَ التصافى
لستَ بالشاعرِ يا قلبيَ حتّى … تُطلعَ النرجسَ من شوكِ الفيافى !

هذه الصحراء ما بين ضلوعى … كاد يُذوى شوكَها فرطُ صداها
أعولتْ فى الصدرِ تستجدى دموعي … فأبى مُسْتكبِرُ الدمع وتاها

عبثاً تخرسُ فى الصدرِ اللحونْ … أيها المُضْجِرُ صنّاً وإباء
أنت كالبلبلِ فى هام الغصونْ … عيشُهُ أنْ يُسكرَ الروضَ غناء

هذه الصحراء حولى أين سرتُ … تفزعُ الجِنّانُ من وحشتِها
قدعوى فى جوّها الويلُ المُشِتُّ … وتنزّى الرملُ فى شُعلتِها

يتمنّى الصمتَ ـ لو كان مُتاحا ـ … ضَرَمٌ في صدرِهِ مُسْتَبْسِلُ
لا الجوى لا الغمُّ لا الويلُ جِراحا … تُسكتُ البلبلَ، عاشَ البلبلُ !!

تتعبُ الأعينُ فى آفاقِها … كشراعٍ بين أمواجِ العُباب
ويَضِجُّ الغمُّ فى أعماقِها … ضجّةَ الأغلالِ فى دار العذاب

أيها الضاربُ فى عُرضِ الصحارى … تتمنّى واحة تأوي إليها
عبثاً تطلبُ فى الصحراءِ دارا … تطرحُ الأعباءَ ما بين يديها

يا لصحراويْنِ في قلبي وحولى … أتمنّى فيهما لمعَ سَراب
أنا ما بينهما أرقبُ ظِلّى … فأراهُ سلوتى وسْطَ الرحاب

أيها الهاربُ من دُنيا الجحودْ … إنَّ فى صدركَ أنغامَ الوفاء !
أيها المُدلجُ فى ليلِ الجمودْ … إنَّ فى نفسكَ آفاقَ الضياء !

أيها الوحشةُ خلّى العنكبوتْ … تنسجِ الأكفانَ فى أحناءِ صدرى
وانشرى الليلَ على كهفِ الصموتْ … واصبغى باليأسِ والأهوالِ فجرى

أيها الظمآنُ فى هذا العدَمْ … أنتَ نبعٌ ترتوى منهُ الظِّماء
أنتَ فيه يائسٌ تشكو السقمْ … وَهْوَ من يأسكَ يستسقى الرجاء !

أظمئى زهرى وزيدي سأمى … وارتعى فى خاطرى يا وَحشتى !
أنا منْ صمتِكِ أغذو نغَمى … وَبِوَيْلاتِكِ أسقى جنّتى !!

إنّ غمّاً لم يزلْ فى الصدرِ يُطوى … هو كنزى ومَعينُ الشعرِ عندى
لا تُهِنْهُ أيها القلبُ بشكوى … إنّ فيها هونَ آمالى ومجدى

غنِّ هذا الموتَ ألحانَ الحياهْ
واسقِ صحراويْكَ من خمرةِ حِسِّكْ
ما أرى الينبوعَ فى هذي الفلاهْ … فالتمسهُ اليومَ فى أعماقِ نفسِك !

(دمشق) أمجد الطرابلسي

الصدى والنرجس

للأستاذ خليل هنداوى

مهدة إلى الأستاذ دريني خشبة

« نرجس كان فتى سليل إلهين من آلهة الماء ، فأحبته « الصدى » فصدعنها وجفاها ، فشكت أمرها إلى الالهة « هيرا » زوجة « أبولون » فلم يذعن ولذا مسخه أبولون زهرة هي زهرة النرجس ، فكانت على غراره مصوبة برأسها لأنه كان يقف على حوافى الغدران وينكس رأسه ليستجلي جماله في مائها . أما الصدى فأصابها الهزال حتى لم يبق منها إلا القدرة على ترديد الأصوات »

أيها الرجل ! لاتصم سمعك عند ما تناديك المرأة فهي شيء غير الحب والجمال (خ . ه)

نرجس

على وجنتيه يرفُّ الشباب ... وتزهو على الفجر ألوانه
ومن مُقلتيه يشعُّ الضياء ... كأن الكواكبَ أخدانه
يفيض على الكون من حسنه ... كأن حمى الحسن أوطانه

تمثَّلَ فى قلب كل الحسان ... فكان الرجاء وكان المثل
لكم تتهادى عليه القلوب ... وكم تتهادى عليه القبل
على كل ثغر يطوف اسمه ... كأن اسمه ـ عندهن ـ الأمل!

رأته التى راعها حسنه ... فراحت تذيع جواها به
وظلت تلازم محرابه ... كراهب دير بمحرابه
فيامن رأى من جفاها الكرى ... موزعة النفس فى بابه !

لقد شفها منه هذا النفور ... وصيَّرها الحب مثل الخيال
أيشعر رب الجمال الفتون ... بما فى قلوب المها للجمال
فقالت : لآتيه فى خلوة ... أبث هواى له فى اعتزال

وأشكو وأبكى لما حفَّ بى ... فيرحم ما سال من أدمعى
وإمّا استخف كشفت الضلوع ... وأعلنت ما تحتوى أضلعى
وأمّا نبا قلت : قف يافتى ! ... لتشهد عن كثب مصرعى

فيرسم فى مقلتى حسنه ... وتسقط شكواه فى مسمعى
ويلبث مستعبراً مشفقاً ... ويحنو كئيباً على مضجعى
وإذ ذاك أغفو على راحة ... لأن حبيبى يقيم معى !

لقاء

رأته مُكباً على دافق ... كمن تتراءى له خاطره
فما مدَّ عيناً لمن أقبلت ... ولا لفت الطرف للزائره
ولكنها وجمت وهلة ... تلملم آمالها الحائره

رأت وجهه فى رقيق الغدير ... يرى الحسن منه ولا يشبع
فقالت : أتيتُ بلا موعد ... إلى حاجة لم تكن تدفع
فكان على زهوه ذاهلاً ... عن الصوت ، يصغى ولا يسمع

أما راق عينيك حسنى النضير ؟ ... وهذا المقبَّل والمعتنق ؟
لقد لثم الفجر ثغرى الصغير ... وضرَّج خدَىَّ لونُ الشفق
صفا كل معنى بجسمى الرشيق ... وراق به كل شئ ورق ...

تسللتُ والفجر فى غبشة ... جرى فى حواشى الدجى تبره
وجئتك يقتادنى لاهب ... من الوجد لايتقى حره
أتغفو على الحب غفو الخلى ... ومضناك يقتله صبره ؟

هنالك غيد تطير الأمانى ... بهن لحسنك أنى ائتلق
ولكننى شبح هائم ... أبيت على أرق أو قلق
تعال ! فما بىَ إلا رمق ... وإلا تباريح تُذكى الحُرق

أراك تميل ولا تطمئن ... فأهوِ علىَّ ! ولا تبخل
ألا رشفة منك فيها الرحيق ... تقطر من ريقك السلسل
ألا قبلة يا حبيبى النفور ! ... ولكنه سار لم يحفل !

فى قمة الأولمب

وزفَّت إلى قمة الآلهات ... وقد هالها منه ما هالها
وقصت على « هيرا » ما نالها ... وأذهب فى الحب آمالها
لحنت لها آلهات الألمب ... وكل بكى أو تباكى لها

لقد لج بى الوجد يا ربتاه ... فقولى له يعطنى ما أشاء
أهم بتقبيله عنوة ... فيزجرنى زاجر الكبرياء
فناديه حتى يلبى النداء ... فزاد عتواً ... فكان الجزاء

نرجس والصدى

تعالين يا فاتنات الوجوه ... تأملن فى النرجس الهائم
لقد مسخوا شخصه نرجساً ... يظل على الماء كالحائم
يطيف بكل مسيل رقيق ... ويحدق فى حسنه الناعم

مهبك يا ريح زاكى الأريج ... فمن أين ياريح نفح العبير ؟
حنت حين هبت على نرجس ... شذاه العبير ، هواه العذير

من مشاهد دجلة في الشتاء

للأستاذ محمد بهجة الأثرى

ويومٍ ببغـدادَ فى شَتْوَةٍ ... كما تلسعُ العقربُ الشائلهْ
فليس الدِثارُ يقى بردَها ... ولا النارُ مشبوبةً هائلهْ
ترى المرءَ يَصْلى بكانونهـا ... وتأخُذُه رجفــةٌ خاذلهْ
لمحتُ بدجْلَةَ فيه أمرَءًا ... تجرَّدَ كالإبْرَةِ العاطلهْ
فطوراً يُـكِبُّ على جسمه ... كما ترْحَضُ الرَّيْطةَ الغاسلهْ
وطوراً يعومُ بتيَّارِها ... كما أُنسابتِ الحيَّةُ الوائلهْ
يغوصُ كما الصخر يُلْقَى بها ... إلى أنْ تَظُنَّ بِهِ النازِلهْ
فيطفو على مَتْنِها جائِلاً ... شبيهَ الحبابِ طَفَتْ جائِلهْ
تَفَنَّنَ فى عَوْمِهِ جاذِلاً ... كراقصةٍ رقصةً جاذِلهْ
نظرتُ إليـه وبي دهشةٌ ... كما يَجِمُ القلبُ فى الآزِلهْ
تعجَّبْتُ منـه ومن حالتى ... ولى حالةٌ عكسه حائلهْ
حرامٌ علىَّ ســوى فائرٍ ... من الماءِ فى القيظ فى القائِلهْ
تعجبتُ منـه ولو راءنى ... لَقَهْقَهَ قهقهــةً هازِلهْ
كلانا عجيبٌ. فسُبْحانَ مَنْ ... برا الناسَ شاكِلةً شاكِله
ترى خَلْقَه ظاهراً جائراً ... وباطنـه حكمةٌ عادِلهْ
تدِقُّ عن الفهم أسرارُها ... وإنْ بَلَغَ الرتْبَةَ الكامِلهْ
هو الـكونُ أُحْجيَّةٌ أعجزتْ ... بنى الأرضِ قافلةً قافله
عَلَوْا لُجَّةَ الغَمْرَ من آدمٍ ... وغاصُوا وما عَرَفُوا ساحله
بدائعُ دَلَّتْ على مُبْدِعٍ ... وأَعْظَمُها القوّةُ العاقله
فلا يَزْعُمَنْ جاهلٌ فِطنةً ... فَيَجْحَدَ من جهله جابِلَهْ
ألا إنما العقلُ مُسْتَبْصِرٌ ... فهل ينزِع النزعة الجاهله؟!

(بغداد) **محمد بهجة الأثرى**

وقـد بلَّل المـاء أعراقه ... فطاب النسيم ورق النمير
وأما الصدى فهى ولهى تجوب ... من القفر كل بعيد المدى
وتحسـب كل نداء نداه ... فتمضى تجيب النِّدا بالنِّدا
لقد شحبت من أساها الصدى ... فليس تردد إلا الصـدى ...

خليل هنداوى

رغبـــــة

للشاعر الألمانى شيللر

للسـيد عارف قياسـه

من يستطيع أن يتصور غبطتى وابتهاجى، حين أجد مخرجاً من هذا الوادى، حيث سُحب الضباب الصفيقة تنعقد فى جوه، وتتلبد على عدوتيه، وأقذف بنفسى في الفضاء الرحيب

ثمت تصافح عينى هضبات ضاحكة مستبشرة، كللتها خضرة أبدية، وزيّنتها فتوة سرمدية

وا حسرتاه! ليتنى عصفور! ليت لى أجنحة! إذن لدوّمت ثمت ورنقت فوق هاتيك الربى وتلك الهضبات

فلطالما رنت في أذنى ألحان علوية، ليس لى بها من عهد، أفلتت من موسيقى ذلك العالم الطرب المفراح

ولطالما بلغني أريجه العبق الفواح، ممتطياً أجنحة النسمات الرقيقة، فسطع فى أنفى

ثمت أرى أثماراً ذهبية اللون تتألق خلال الأوراق الكثيفة ونباتات تتلألأ بالنوار، لا تخاف قر الشتاء ولا صبارّته

***

تالله ما أرغد الحياة وأهناها فوق هاتيك الربى حيث تذهبها بآرادها شمس أبدية!

ولـكن أمواج تيار جياشة مزبدة، تحظر الاقتراب علىّ، وتمنعني من الدنو، وتملأ قلبي فرقاً ورعباً

فالزورق ينوس قرب الشاطىء ويرجحن، ولـكن واحسرتاه ليس له من ربان يدير دفته! وماذا يضير؟ فلنلجه فى غير وجل ولا إشفاق، فان شُرُعه لمنشورة... فلنأمل ولا نقنط، ولنجترىء ولا نفرق، ومن يرج النجاة فليسلك مسالـكها

إن أعجوبة فريدة تستطيع أن تنقلنى إلى ذلك العالم الجميل المفعم بالأعاجيب والملىء بالمعجزات.

(حماه — سوريا) **عارف قياسه**



قصة شرقية من كاتلين رودس

زبيـــــدة

للأستاذ دريني خشبة

من دأب الزائرات في بعض الممالك الإسلامية أن يلبسن كَونَاً (١) أحمر يخلعنه لدى باب حجرة الزائرين ليراه الرجال فلا يدخلوها مادُمن فيها . وهـذه قصة الزوج المسكين صادق علي ، الذي رأى الكوث الأحمر فلم يستطع أن يلج باب الحجرة ليلقى زوجه بعد سفر طويل عَبْر الصحراء الملتهبة المتلظية ، وما حل بصاحب الكوث من دمار

* * *

زبيدة ابنة الصائغ فتاة جميلة بارعة الحسن ساحرة اللفتات ، تميس كالغصن الرطب في الروضة الفيحاء ، وتبسم كالزهرة الناضرة في الخميلة الغناء ... لم تكد تبلغ من العمر سنتها الثانية عشرة حتى حبسها أبوها في ظلام الخدر ، وأسبل على بدرها السافر خمار الأسر ، كما تعوّد الشرقيون أن يفعلوا ببناتهم إذا ما بلغن هذه السن المبكرة ، التي تُعَد فيها الفتاة لزواج مبكر كذلك ، بيْنما يكون بناتنا (في انجلترا) يتلاعبن في الحدائق ، ويتثقفن في المدارس ، دون أن تبدو عليهن بداوات الأنوثة الفائرة الثائرة ، التي هي أول إرهاصات الزواج

وكان جميع موسري المدينة يتنظرون اكتمال شباب الفتاة ليخطبوها من أبيها لأبنائهم ، وكان كل منهم حريصاً أشد الحرص على أن يفوز بها لابنه دون جميع الناس . وكانت حمرة الخوخ التي تتأرج بالعطر من خديها ، وتفتير النرجس الذي يَنْفُث السحر من عينيها ، ثم هذه القَسِمات التي تتحوى حول فمها الدقيق الرقيق ... كان جميع ذلك مخلوقاً للحب ، موقوفاً على الهوى ، غير مُيَسّرٍ إلا لشباب غض مثله ريّانٍ كما إنه ريّان

وتقدم الآباء إلى الصائغ يخطبون زبيدة ، ولكن الصائغ كان يغلو في تقدير مهرها ليتخلص ممن لا يراه كفءاً لها ، وطمعاً منه ألا يكون أحد قد قبض لابنته مهراً أكثر من مهر زبيدة . ولم لا ؟ أليست زبيدة أجمل فتيات المدينة وأرشقهن وأوفرهن فتنةً وأخفّهن روحاً ؟ وهي مع ذلك كاتبة قارئة تحفظ قدراً غير قليل من آيات الله وحديث الرسول وقصائد الشعراء ، ثم هي تجيد الانشاد والغناء حتى لا يغني مثلها بلبل ، ولا يجيد أن يرسل مثل نغمها ناي ولا عود ... أضف إلى ذلك كله مهارةً فائقةً في الحياكة وأشغال الإبرة وشواغل المنزل ...

وكان أغنى أغنياء المدينة — صادق علي — رجلاً شيخاً ، أشرف على الستين ، وكان صديقاً للصائغ ، يقضي كل يوم شطراً من فراغه عنده ؛ وكانت أسعد لحظاته تلك التي يرى فيها زبيدة الصغيرة تلهو بعرائسها أو تعبث بِسِلِّيها ، وهي مشرقة أمام الدكان بين أترابها كالقمر الحالم بين الأنجم الحَسْرى ... ولم يكن أحد يفكر في أن هذا الشيخ الذي أوهنه الكبر قد نوى في فؤاده من حب زبيدة ما لم ينو في أفئدة الشبان اليوافع ؛ وأنه صمم على أن يشتري هـذا الجمال وذاك الكمال بذهبه الذي لا يكاثره في ضخامته أحد ... فلما تقدم خاطباً زبيدة إلى أبيها ، هش الرجل وبش ، وعده نخراً أي نخر أن يصهر إلى صادق علي ذي الكنوز والضياع والأملاك الشاسعة ، والقصور المنيفة العامرة

(١) كاتلين رودس من أشهر الكاتبات الانجليزيات ومن أحبهن إلى بني جنسها . ولها قصص عظيمة سامية ولكنها في هذه القصة تكتب متأثرة إلى حد كبير بروح ألف ليلة . وقد أطلقت على القصة (الكوثان الأحمران) والكوث أو القفش هو ما نسميه الشبشب

وذعرت زبيدة أيما ذعر لما صعقها أبوها بهذا النبأ . وكيف لاتذعر وهى تعرف الرجل أحسن المعرفة ، وطالما قدمت له أقداح الشاي المعطر ، وفناجيل القهوة العربية ، فى دكان أبيها ؟ وكيف لاتذعر ، وهي يعز عليها أن يذبل شبابها الفينان ، فى هاتين اليدين الثلوجتين ، وتحت ظلال تلك الشيبة الناصعة ، وهذا البدن المهزول المعروق ... إن سنيها الثلاث عشرة لتنوء تحت كلكل السنين الستين التي يرزح تحتها هذا الرجل ... وإن حمرة الخوخ وتفتير النرجس وقسمات الخدين وجنة بدنها الخصب الناضج ، لأعز من أن تشرك صادق على [1] في قبره القريب ! فلم لاتفزع الفتاة من النبأ المزعج الذى فجأها به والدها فى أمسية شقية فتقول له :

— أبتاه ! عمرك الله ماذا تقول ؟ ما أظنك إلا ساخراً بى ! أن صادق على رجُل عادل ، وأحسبه لايرتضى هذا الظلم الذى يوشك أن يحل بى ، فهو شيخ عجوز طاعن فى السن ، وأنا بعد فتاة صغيرة لم تكد تنقضى طفولتى ، فأين أنا وأين هو ... لا لا يا أبى ...

فيتلطف أبوها ويقول : « هذا حق ، إلا أنه يا ابنتى رجل موسر غنى ضخم الثراء ، وقد مهرك مهراً لم تمهر بمثله فتاة فى المدينة ؛ وهو مع هذا يحبك وسيحرص عليك كروحه ، وحين تصبحين زوجه سيحترمك الجميع وتكونين على رأس السيدات قاطبة ... ثم هو برغم سنه قوىٌ فتىٌ مفتول العضل ، غض الإهاب موفور الشباب ...

فتعبس الفتاة وتقول شاكية : « أوه يا أبى ! ولكنى لا أستطيع أن أحبه ... هل ضقت بى ذرعاً يا أبى فتريد أن تقذف بى ولما استمتع بعد بشبابى ؟ ! دعنى أعش معكم قليلاً يا أبتاه ! دعنى أستمتع بالشباب الحلو ، وأهنأ بأفاويق الصبا الغريض !

واتقد عينا الأب الجشع بالغضب ، وهم أن يبطش بزبيدة السكينة التى تقدمت فى سذاجة وخوف ، فطوقت أباها بذراعيها اللدنتين ، وأسندت رأسها الصغير إلى صدره الكبير ، وانطلقت تبكى

— أسكتى يا ابنتى ! إن الفتاة العاقلة المهذبة هي التى لاتضطر أباها إلى أخذها بالشدة ، بل ما على الوالد إلا أن يأمر ، وما عليها إلا أن تطيع . إننى لست كهؤلاء الآباء الذين نشأوا أبناءهم على احترام العصا ، ولكننى أرجو ألا أضطر إليها إذا ركبت رأسك ولم تصيخى ولم تسمعي !

وازلزل قلب الفتاة ، وذكرت ماكان يعاملها أبوها به من اللطف والظرف والرقة والرفق ، وأنه ما ساءها قط بضرب ولا تأنيب ، وأنها ، وما تزال ، كانت كل شئ له فى هذه الحياة ، لأنه لم يكن له ولد غيرها ، وأنه طالما جلب لها اللعب ، وترضاها بالدُّمى ... فسكنت وقالت : « عفواً يا أبى ... » وسر الرجل التاجر ، وقبل ابنته وقال : « الآن أنت ابنتى حقاً ... أنت زبيدة المؤدبة المهذبة المطيعة ... غداً يحضر صادق على فينثر ذهبه تحت قدميك ، ولا يمضى شهر حتى تُزَفّى إليه

* * *

وكان لزبيدة خادمة نوبية أبنوسية السواد ، وكانت بها حفية وعليها عطوفا ، فأهرعت إليها زبيدة تقول :

— فاطمة ! فاطمة ! هل علمت ؟ لقد أمر أبى أن أتزوج من صادق على العجوز الغنى الأرمل الذى سنه أضعاف سنى ؟ ! وهو يقول إننى سأزف إليه قبل شهر ، فهل رأيت ؟ آه يا فاطمة أنا لا أطيق هذا ! ساعدينى بربك حتى أنجو من هذا العذاب

— آه يا صغيرتى العزيزة ! لا بد أن تتم مشيئة أبيك ! حقاً إن صادق على رجل عجوز أرمل ، ولكنه غنى واسع الغنى ، وستنعمين عنده بمالا تحلم به فتاة !

فجحظت عينا زبيدة ، وقالت للنوبية المشئومة :

— حتى أنت يا فاطمة ! وسرى الذى ألقيته إليك أمس ؟ هل نسيته ؟

فوضعت النوبية إصبعها الأبنوسى فى فمها المرجانى ، وأنشأت تقول :

— صه ! أسكتى يا صغيرتى ! إياك أن تنبسى بهذا الهذر بعد فقد يذهب به طائر سوء إلى من تكرهين أن يعلمه ... حقاً ، أنا لم أنس ما قصصت علىّ من غرام عمران الشاب صاحب الناى... ولكن هذا العبث لا بد أن ينتهى الآن ، ويجب ألا تلتقيا بعد اليوم !

(١) نستبيح اللغة فى الوقوف على الاعلام المنصوبة هكذا

— بيد أننى أحبه يا فاطمة ! إنه جميل ويافع ... وعزفه أحب إلى وأحلى من غناء النسيم فى أفنان شجرات اللوز ، وصفاء عينيه أوقع فى النفس من صفاء الماء النمير فى الغدير ... إن له لمساً ناعماً كأوراق الورد يا فاطمة ! أواه لو أننى زففت إليه بدلاً من صادق على !

— حسبك ! إنك إذن كنت تلقينه ! والله لو علمت بهذا لفضحتك عند والدك منذ أسابيع !

وهكذا اسودت الدنيا بأسرها فى فؤاد الفتاة ، فلقد كانت ترجو أن تعينها فاطمة على بلواها ، فانعكست الآية ، وانتشر ليل أحزانها من وجه النوبيه البغيض

لقد أحبت زبيدة عمران ، وأحب عمران زبيدة ، لأنهما نشآ فى مهد الطفولة الناعم ، وشبا على غرار الشباب الغريض ، فبارك الله قلبيهما ، ومشى عليهما بيده الرحيمة الطاهرة . ولما وقفا مرة قبيل حجاب زبيدة ، تحت ظلال أشجار البرتقال فى حديقة بيت الصائغ ، نقل الأرج الحلو شذى حبهما من قلب إلى قلب ، وعرفا لأول مرة سر الوجود ، ونظر بعضهما إلى بعض نظرات عميقة جديدة مغرورقة بالدموع ، تنسكب من أغوار الفؤاد لا من أطراف العين ... وظلت أشجار البرتقال هيكلهما الحبيب ، يتناجيان فى ظله ويتشاكيان ، هى فى الثالثة عشرة أو فى فجر الرابعة عشرة ؛ وهو فى الثامنة عشرة ، أسود العينين ، مسبل الشعر ، وضاح الجبين ؛ ثغره الباسم كالأقحوانة ، وخده المكسو بالخجل مهيأ للقبل ، وشبابه اليانع كنضرة الحديقة ، وماءة حسنه تسكب نداها فى روح زبيدة ، القسيمة الوسيمة ، الفتان الحسان التى لها هذا الفم وذاك الجسم ... تبارك الله ! ...

يا للقضاء الساخر ! لقد قطف الحبيبان جنا القبلة الأولى ... القبلة الشهية السحرية التى غيرت معالم الأرض ، ودارت برأسيهما حولها ... فى صبيحة اليوم الأسود الذى تكلم فيه الصائغ مع فتاته ، فصعقها بالنبأ المشئوم

لقد باتت زبيدة ليلة يالها من ليلة ، تتقلب على فراش من الشوك ، وتجتر صنوفاً مهلكة من الهموم ، وتطيف برأسها المتقد شهب من الأفكار تقذف روحها بالصواعق ... حتى إذا انبلج الفجر ، وانفلق الصباح ، وثبت كالقطاة من سريرها الكئيب وطوت الدرج دون أن تنتعل حذاء يقى قدميها المعبودتين ، وذلك مخافة أن توقظ أحداً من النُّوام الأشقياء ، ثم انفلتت إلى الحديقة قبل أن يهتف المؤذن هتاف الصباح الرهيب : « الله أكبر ! الله أكبر ! » وقبل أن تنتثر أوراق الورد على جبين المشرق ... ومضت إلى الهيكل ... بيت القدس الحبيب ... إلى شجرات البرتقال ، ووقفت ثمت ترتقب عمران الذى كان منها على موعد ... ولم تبال بقطرات الندى التى كانت تنهل معطرة بنفمة الورد ، وعبير أزهار اللوز ، وروح الزنبق والياسمين ، لأنها ملائكة الحب تجبر القلوب الكسيرة ، وتمسح الدمع من عيون العشاق ...

وأقبل عمران فى ظلام البعد يسكب فى آذان الطبيعة النائمة موسيقاه ، ويساعد المؤذن التقى بنايه الفردوسى ، فتصحو البرايا وتهتف مع المؤذن ومع عمران : « الله أكبر »

وروّع عمران ما رأى من وجوم حبيبته ، وما لمح من لؤلؤ دمعها الذى يوشك أن ينهمر : « ماذا ؟ زبيدة ! مالك ياحبيبتى ؟ لقد كنا بخير أمس ! فماذا ؟ ما بالك باهتة هكذا كأننا فى أخريات رمضان ؟ » ولفّت زبيدة ذراعيها الحبيبين حول عنق فتاها ، وجعلت تصعد آهاتها وتقول : « آه يا حبيبى ! لقد كان ما لم يكن فى الحسبان ... لقد خُطِبت ! وقضى أبى أن أزف إلى صادق على العجوز الأرمل بعد شهر من الزمان ! »

وتصدع قلب الوامق المحب ، وبكى ، وبكت معه زبيدة ؛ وطفقا ينعيان أحلامهما ، ويتغنيان آلامهما ، ولا يدريان ماذا يصنعان . وكان الفجر الحزين يبكى معهما بدموع الندى

وجلسا على العشب المبلل ساعة ، وزبيدة نائمة غارة فى صدر حبيبها ، وكلما حاول عمران أن يتكلم انحبس منطقه وتكلمت جفونه ، ولم يملك إلا أن يغمر خبيئته بالقبل ، يطبعها فى شعرها المغدودن ، وفوق جبينها الشاحب ، وعلى صدرها المرتجف ، حتى ذرّ قرن ذكاء ، وآذنتهما بالفراق ، فهب الفتى المتبول يعانق زبيدة وزبيدة تعانقه ، ويقبلها وتقبله ... ثم افترقا ... هى كالشبح فى ظلال الأشجار إلى القصر الرهيب ، وهو كسير القلب ، مهيض الجناح ... إلى ... الصحراء ، لا يدرى أين يذهب

* * *

وجعلوا يُسمّنون زبيدة فيقدمون لها كرات الشهد معجونة بالأفاويه ، ويدسمون لها السمان ، ويبالغون فى انتقاء الآكال ...

ولكن زبيدة مع ذلك جعلت تشحب وتشحب ، ويذبل جسمها ويضوى ، وأبوها القاسي يرى ذلك فيحزن ، ثم يواسيها بكلمة جافة فتبدى له الرضى .. حتى إذا كانت ليلة الزفاف ، وخرجت الفتاة من الحمام ، وسيقت إلى سجن زوجها ، أخذت تودع الحديقة عن كثب ، وترمق هيكل الحب المقدس تحت ظلال البرتقال ، وتذرف العبرات الحرار ، وفاطمة الخبيثة تشهد ولا تتصدع ، بل تبسم وتتفكه ... وتزغرد وتغنى ...

ومضت الأيام ... ولم يأل صادق على جهداً فى ملاطفة زبيدة ومداعبتها ، ولم يترك حلية من ذهب أو ماس أو لؤلؤ إلا اشتراها لها مهما كان ثمنها ... ولكن الفتاة كانت مع ذلك تشحب وتشحب ، ويشتد شحوبها ... لأنها لم تنس عمرانها الفتى الجميل الذي زاد جماله وتضاعف حبه بازدياد كراهتها لصادق على ...

ولم يكن الشيخ العجوز يسمح لزبيدة بمغادرة باب القصر... حتى ولو إلى الحديقة الواسعة الفيحاء التي تحيط به ، فكانت تصعد إلى السطح ، لتتنسم أخبار حبيبها فى أديم السماء ، ولتنشق عبير الحب القديم على أجنحة الذكريات !

فبينا هي على السطح يوماً إذا بها تسمع موسيقى حلوة فى حديقة القصر ، وإذا الموسيقى إرنان ناى كناى حبيبها ... فأطلت لترى من صاحب الناى ، فوجدت بستانيًّا يجمع الأوراق المتناثرة فوق عشب الحديقة ... وكأنما جذبته روحها اللهفانة فرفع رأسه إلى السطح ... والتقت الأعين ... وعرف كل حبيبه

لقد عمل عمران بستانيًّا لدى صادق على ... لينشق الهواء الذى تنشق منه سالبة لبه ، وساكنة قلبه ... وهو مع ذلك لا يحلم بلقائها ... !

ودارت الأرض مرة أخرى ... واستيقظت آمال وأحلام !

وكان يحس عمران هذه اللحظة السعيدة التي يرى فيها كل أصيل وجه حبيبته ، وتلتقى عيناه بعينيها ... لكن الحب أجرأ من هذا وأشجع ... وهو لا يبالى أن يسلك سبل الجحيم ليصنع ماصنع پاولو وفرنشيسكارا(1) ... فتبدلت النظرة فصارت ابتسامة ثم تمتمة ، ثم تلويحاً بأعواد من الياسمين ... ثم محاولة لقاء ...

***

ولقى صادق زوجته فشدهه منها تبدل حالها وتدفق الدم الشاب الفتى فى خديها ... وأخبرها أنه مزمع سفراً طويلاً فى الصحراء قد لا يعود منه قبل أسبوع ، لأن الشيطان نزغ بين نفر من أقاربه ، فهو ذاهب لإصلاح ذات بينهم ، وإحلال الصفاء محل الجفاء فيهم ؛ ثم أوصاها بالقصر ، وحذرها — فى تلطف — من مغادرة بابه ، حتى يؤوب ... ووعدته أن تكون عند ظنه بها ، وفية له ، حفية به ، عاملة على مافيه رضاه !

وسافر صادق على ... واستطاعت زبيدة أن ترسم الخطة للقاء عمران ... وكلته حين أمنت مكر الخدم وقت غدائهم ، خلال (مشربية) مشرفة على الحديقة ، فاتفقا أن يزورها فى زي امرأة (!) وأن يعد لذلك كوناً أحمر وملاءة سوداء ونقاباً ... وأن يتخذ اسماً مستعاراً ، وليكن (مرسينه) ... ولم يكن أحد من الخدم يعرف من هي هذه السيدة مرسينه التي تريد لقاء سيدتهم ، ولكنهم لم يشكوا قط فى إحدى زائرات القصر ، ولهذا كانت الخادم ، بعد إذ تقدم أكواب الشاي المعطر ، أو أقداح القهوة العربية ، للسيدة مرسينه ، تنسحب من الطابق كله ... فيخلو الجو للحبيبين المشوقين !!

ومضى الأسبوع على أحسن حال بينهما من تساقى الحب وتشاكى الهوى ، وبلّ أوار القلوب ، ثم جاء رسول من لدن صادق على يحمل رسالة من مولاه ، أن قد شجر خلاف آخر ، وأنه قاض أسبوعاً آخر عند أهله ...

وفرح عمران أيما فرح ... وطفر قلب زبيدة ... وما كان أجمل عمران وهو يبث حبه إلى فتاته ، وهو يعانقها فى شدة وحرارة ويقول : « أسبوع آخر ؟ وما سبعة أيام يازهرة حياتى وننفصل بعدها ، وتقبل الشفتان الكريهتان فتقطف القبل الحلوة المعسولة من فمك الرقيق الدقيق ، وينحط الصدر البغيض الميت فوق صدرك الناهد الأغيد ، وتنقلب السلاسل الذهبية التي تربط قلبينا بأغصان الورد فتؤذى قلبك بأصفاد من حديد ؟ ! »

بيد أن صادق على أنجز أعماله فى ثلاثة أيام أو نحوها ، وأقبل يحث المطى عبر الصحراء ، فوصل قبل ميعاده ... ووصل والحبيبان يرشفان كؤوس الهوى ، ويتبادلان سلافة الحب ، فلما أقبل

---

(1) كانا متحابين فى الدنيا ، فلما ماتا دخلا النار ، ولكنهما التقيا فى الجحيم فنسيا لظاها بحلاوة القبل ! (دانتى)

الزوج مشوقاً إلى لقاء زوجه ، نظر فوجد الكوث الأحمر لدى الباب ، فتلبث قليلا ، وجعل يروح ويجيء ، وينتظر بجدع أنفه أن ينصرف الزائر فلا ينصرف .. ثم يسأل الخادم فيعلم أنها امرأة تدعى مرسينة « تطيل اللبث يا مولاى عند سيدتى ، وتحضر إلى هنا كل يوم ... و ... و ... »

ويمضى الرجل المسكين فيدخل إلى الحمام ليذهب عنه غبار السفر ويصعد الخادم فيرهف سمعه ، وينصت ليسمع حديث من فى الغرفة ... ولكنه بدلاً من أن يسمع حديثاً ترن فى أذنيه قبل فضية ، وآهات موجعات ... ثم ينصت ... فيسمع شكوى ونجوى ... وسباباً مقذعا ، فيعلم السر ... ويسقط فى يده : « تالله لو علم مولاي لذبح حبيبها أمام عينيها »

وفضل الخادم أن ينقذ الموقف ، فنقر بأصبعه على الباب ، واستوى عمران واستتر ...

— أدخل !

— سيدتى ... لقد عاد مولاى صادق على فجأة ... وهو يريد أن يراك ! وارتبكت زبيدة ، وأسقط فى يدي عمران

— لا بأس ... إذهب أنت !

وتبادل الحبيبان القبل مع ذلك ، ثم فتحت له زبيدة شباك (الشربية) فانفتل منه وقد لبس الكوث الأحمر

***

وخرجت زبيدة لتلقى زوجها وهي مطمئنة آمنة ... ولكن ساعة بأكملها مضت دون أن يخرج من الحمام ... ومضت ساعة أخرى ... وأرخى الليل سدوله ... وأمرت الخدم فأوقدوا السُّرُج ... وآثرت أن تذهب إلى الحمام لتلقى زوجها ... وما كادت تفعل حتى برز صادق على من إحدى الغرف وقد بدل ثيابه ، فعانق زبيدة عناقاً حاراً وطفق يغمرها بقبل لا جنية ولا مشتهاة !

— قط ما عرفت الشوق كما عرفته فى هذا السفر يا زبيدة !

— ... ؟ ...

— لقد أحضرت لك هدايا وألطافاً جمة ... يا غلام ! أحضر السلال والحقائب

وأحضر الغلام السلال والحقائب ، وطفق صادق على يحل الأربطة ، ويخرج عقود اللؤلؤ وأقراط الذهب وأساور الفضة ، ثم يضع كل ذلك موضعه من عنق زبيدة وجيدها وأذنيها وذراعيها ... ثم فتح حقيبة وأخرج ثوباً ثميناً مُوَشّى تخلعه عليها فبدت فيه كامرأة هرون الرشيد !

— هذا جميل ... أشكرك

— وأجمل منه الهدية التالية ... يا غلام ... أحضر السفط !

وأحضر الغلام السفط الكبير فقال صادق على :

— أما والله لا يفتح السفط إلا زبيدة ...

فارتجفت يدا زبيدة كأن فيهما كهرباء ، وفتحت السفط ، ثم جعلت تخرج ما فيه من طرف وتحف ...

ولكنها اقشعرت فجأة ، حينما اصطدمت يداها بكوث أحمر ... ثم بثوب فيه شيء ثقيل ...

ماذا ... واحرباه !! رأس عمران الجميل ... الرأس الذى كان يرسل عينيه الساحرتين الدعجاوين فى عينيها الوامقتين المشغوفتين ...! الرأس الذى كان لسانه يصوغ أحلى عبارات الغزل ! الرأس الذى كان فمه ينفخ فى الناى فترقص الملائكة ...

— زبيدة !! أحزينة أنت !

— اقتلني ... اقتلني يا صادق !

— لا ... بل أعاقبك بأشد من القتل ! ستعيشين لى ! أنظري ! هاتان الشفتان المرتعشتان ستنطبقان على شفتيك برغمك ... لا شفتا عمران ! وهذا الوجه المكلثم الجهد الشائه سيزعجك دائماً ... وهذا الصدر الثقيل سيضايقك أبداً ... ستكونين لى بعد عمران يا زبيدة ! لن يشركني فيك أحد بعد اليوم ! أليس كذلك ؟ ها ها ... ها ... »

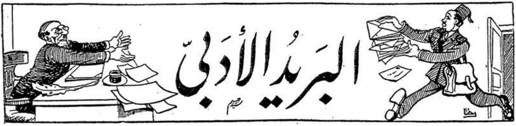
ولفت الدنيا برأس زبيدة ، ولكن فكرة طافت بدماغها فجأة ، فجثت تحت قدمى صادق على ، وطفقت تتوسل وتتضرع ، وتلف يديها على وسطه ، حتى إذا لمست خنجره ، انتزعته بقوة ، ثم أغمدته فى صدرها ...

— لا لن أكون لك أيها المسخ ، وسأكون إلى الأبد لعمران ... سأظل وفية لك يا عمران ... لك وحدك ... يا ... عمران ! ...

***

الشباب للشباب يا شرق ... وإلا ... فالكوث الأحمر يعمل عمله

دريني خشبة



جوائز أدبية مصرية

تنشر الرسالة فى هذا الباب كثيراً من أنباء الجوائز الأدبية التى ترتبها مختلف الأمم لتشجيع الآداب والعلوم ، ولكنها لم تستطع أن تنشر حتى اليوم أنباء « الجوائز الأدبية المصرية » ذلك لأن هذه الجوائز لم توجد مع الأسف حتى اليوم ؛ بيد أنه مما يدعو إلى الغبطة أن تكون وزارة المعارف قد فطنت أخيراً إلى هذا النقص ، فأمامها الآن مشروع قدمه منذ حين صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفى باشا سفير مصر فى لندن يقضى بإنشاء خمس جوائز أدبية تمنح للمتفوقين من كتاب العربية فى الآداب والعلوم ؛ وقيمة هذه الجوائز ألف جنيه لكل منها مائتا جنيه قد تزاد إلى مائتين وخمسين ، ويمنح منها أربع للمصريين ، وترصد الخامسة لأبناء الأقطار العربية الشقيقة . ولم توضع نصوص المشروع النهائية بعد ، ولكن هناك تفكيراً فى أن يكون باب التشجيع والمنافسة مفتوحاً لكل كتاب العربية من مختلف الأقطار فى جميع الموضوعات الأدبية العامة مثل الشعر وتاريخ الأدب والقصة والقطع المسرحية وأمثالها ؛ وأما الموضوعات المصرية المحضة فتقصر المباراة فيها على المصريين . وعلى أى حال فإن الغاية الأساسية من ترتيب هذه الجوائز هى تشجيع الآداب العربية بصفة عامة ، وهى غاية نحمدها ونرجو أن توفق الجهات المختصة إلى تحقيقها . ذلك أن الأمر لا يتعلق هنا بوزارة المعارف فقط ، ولا يكفى فيه أن ترتب جوائز خمس ؛ فهنالك الجامعة المصرية وكلياتها المختلفة ، وهنالك الجامع الأزهر وكلياته المختلفة ، وهنالك مختلف الهيئات العلمية والفنية ، فهذه كلها يطلب إليها أن ترتب الجوائز الأدبية والعلمية . وإذا كانت وزارة المعارف تعتمد فى كل عام نحو عشرة آلاف جنيه لتشجيع الحركة المسرحية ، وتتدفق من هذا المبلغ معظمه على الفرق التمثيلية الأجنبية ، فإنه يكون من التقتير الواضح أن ترصد ألف جنيه فقط لتشجيع الحركة الأدبية . لذلك نحب أن نعتبر مشروع الجوائز الحالى بداية فقط نرجو أن تثمر ثمرها المرغوب ، وأن تؤازرها جميع هيئاتنا العلمية ، فترتب كل جوائزها لتشجيع التفكير العربى فى مختلف نواحيه

إغلاق مقهى أدبى شهير

من أنباء باريس أن مقهى « كافيه ده كرواسان » الشهير قد أغلق نهائياً بعد أن لبث مدى تسعين عاماً منتدى للأدباء والصحفيين . وكان هذا المقهى التاريخى يقع على زاوية شارع مونمارتر عند التقائه بشارع كرواسان الصغير ؛ وقد اشتهر منذ أواخر القرن الماضى بأنه مقهى الأدباء الناشئين . ثم غدا قبيل الحرب مجمع الصحفيين يحتشدون فيه صباحاً ومساء ليكتبوا أخبارهم أو مقالاتهم ؛ وهكذا كانت تحرر فيه معظم الصحف البارزية ، وتعقد فيه الاجتماعات الأدبية والصحفية . وكان صاحبه مسيو فيدمان أديباً يشرف على كثير من الاجتماعات الأدبيــة التى تعقد فى مقهاه . ومما هو جدير بالذكر أن جان جوريس الكاتب الفرنسى والزعيم الاشتراكى الشهير قتل فى أغسطس سنة ١٩١٤ أثناء جلوسه فى شرفة هذا المقهى

وقد تحول تيار الأدباء والفنانين فى العهد الأخير من مونمارتر إلى مونبارناس ، وأخذت مقاهى مونمارتر ومطاعمها الشعبية تواجه الأزمات نظراً لانصراف أصدقائها القدماء عنها ، بينما أخذت مقاهى مونبارناس ، ومعظمها جديد ، تزخر بعملائها الجدد ، وقد عرفت مقاهى هذا الحى البارزى الشهير دائماً بأنها مجمع الفنانين ، ولكنها اليوم تغدو أيضاً مجمع الأدباء والكتاب من كل ضرب

اقتراح انشاء جامعة عراقية

أقام أدباء بغداد حفلة تكريم للدكتور زكي مبارك فألقى في تحيتهم خطبة جاءت في ختامها الكلمة الآتية :

« لقد رحلت عن مصر وأنا مصمم على الاستبسال في الدعوة إلى إنشاء جامعة عراقية ، فلما وردت العراق لم أجد من يشجعني على تحقيق ذلك الأمل النبيل ، وصارحني بعض الرجال بما يعترض إنشاء الجامعة العراقية من عراقيل

فأنا أنتهز هذه الفرصة لتسجيل هذه الرغبة بطريقة علنية ، وأصافح بيمناي أنصارها الأوفياء ، وأدعوكم إلى الكتابة عن هذه الأمنية في كل يوم ، والكلام عنها في كل مجتمع ، والالحاح بها على جميع الوزراء . واعلموا أن من العار أن تخلو بغداد من جامعة وباسمها الخالد تتعطر الأفواه في جامعات الشرق والغرب

إن الحجة في أيدينا أيها الزملاء ، فعندنا نواة الجامعة العراقية ، عندنا النواة السليمة لأربع كليات ، فلنبادر بتأسيس الجامعة العراقية بصفة رسمية ، ولنبادر بخلق الصلات العلمية والأدبية مع الجامعة المصرية وجامعة باريس ، ولنقرر منذ هذه الساعة أن نفتتح الجامعة بمهرجان مشهود في آذار المقبل ، شهر الأزهار والرياحين

أيها الصحفيون الشرفاء

لقد كنتم عند ظن الوطن الغالي في ظروف كثيرة ، فشدوا من عزائمكم لنصرته هذه المرة ، وحققوا أشرف غاية لحملة الأقلام وهي إعزاز العلوم والآداب والفنون

أيها الزملاء

لقد كرمتموني بهذا الاحتفال الرائع ، فهل تعرفون متى أردّ لكم هذا الدين النبيل ؟

سأرده يوم يتقرر بفضل مسعاكم إنشاء الجامعة العراقية ، ويومئذ لا أكتفي في تكريمكم بألوان الحلوى وأكواب الشاي ، وإنما أعقر لكم الذبائح من عرائس الشعر الجميل »

وقد نوهت جميع الجرائد العراقية بهذه الدعوة التي صادفت هوى من أنفس الحاضرين وفيهم أقطاب التعليم بوزارة المعارف العراقية

المهرجان الملكي لجماعة الأسبوع الصحي

رأت جماعة الأسبوع الصحي أن تقيم لمناسبة زواج جلالة الملك الميمون مهرجاناً في إبان الزفاف ، تسهم فيه بنصيبها في أفراح الأمة ، وتعلن عظيم سرورها بذلك الأملاك الكريم . وقد تألفت من بين الأعضاء القائمين بهذا المهرجان لجنة أدبية لتدعو الشعراء والكتاب والخطباء والزجالين إلى مباراة بيانية تقام في مكان وزمن يعلن عنهما فيما بعد . وإن في التقدم إلى تلك المباراة تسجيل فخار وشرف لما لموضوع القول من جلال الخطر ، وسمو الشأن ، وكرم المنصب ، وشرف المحتد ، وعلو القدر بين العالمين

وإن ميدان البيان البليغ لمتسع ، شباب رائع فتي ، وعقل ألمي ، وقلب تقي ، وخلق عظيم ، ودين مكين ، قد ضرب أروع الأمثال للشباب الطاهر ، فسارع إلى الزواج ، وهو سنة الاسلام ونصف الدين ، وبادر إلى الإحصان ، ليكون أسوة حسنة لشباب مصر في إجابة دعوة الرسول الأمين

وإن اللجنة لتتقدم داعية رجال الأدب إلى تلك الحلبة الطاهرة المباركة ليتقدموا إليها بشعرهم ، وخطبهم ، وكتاباتهم ، وأزجالهم وأدعيتهم الضارعة إلى الله تعالى أن يقي مليك مصر خائنة الأعين وما تخفي الصدور

ومن يقع الاختيار على كلامه يكن له حق إلقائه في يوم المهرجان ، أو يسجل في كتاب يرفع إلى مقام المليك ، وينشر بين الناس تذكاراً خالداً . وستضع اللجنة جوائز مختلفة لمن يحوز قصب السبق في المباراة . وإن أقصى ميعاد يرسل فيه الأدباء ما تجود به قرائحهم هو يوم الاثنين ١٠ يناير سنة ١٩٣٨

وترسل إلى الأستاذ محمد عبد الجواد المدرس بدار العلوم العليا بالمنيرة بمصر

مقرر اللجنة
محمد أبو زهره
المدرس بكلية الحقوق

معركة الفاشستية والديمقراطية

يتخذ النضال الدولي يوماً فيوماً صورة صراع واضح بين معسكرين من المبادئ الحصيمة : الفاشستية والديمقراطية ؛ وهذه الظاهرة تستغرق اليوم اهتمام المفكرين والساسة في جميع الأمم .

وقد ظهر أخيراً كتاب يتناول هذا الموضوع بقلم الكاتب السياسى الأمريكى هاملتون ارمسترنج عنوانه « إما نحن وإما هم » We or They ؛ ونحن يقصد بها الكتلة الديمقراطية ، وهم يقصد بها الكتلة الفاشستية . ويستعرض الكاتب ظروف هذه المعركة بقوة ووضوح ، وهو يدرسها ويستعرضها منذ أعوام فى مجلة الشئون الخارجية الأمريكية التى يشرف على تحريرها ببراعة . ومن رأيه أن توجد اليوم بين هاتين الكتلتين من المبادئ هوة لا يمكن اجتيازها ، وإن إحداهما ستقتل الأخرى بلا ريب ؛ وكل ما هنالك هو السعى لمعرفة من يكون الظافر . فهل تنتصر الشعوب الحرة وتلك التى تريد أن تستعيد حريتها ، أم تنتصر عصبة الفاجرين الحمقى الذين يريدون أن يجعلوا من البشرية أداة حية لخدمة الحكم المطلق ؟

ويدحض الكاتب بقوة ذلك الزعم الذى تستتر وراءه الفاشستية منذ حين وهو أنها تخاصم الشيوعية وتعمل لسحقها ؛ ومع أنه ليس بالاشتراكى ولا بالشيوعى فإنه ديموقراطى فى تفكيره مؤمن بمبدأ سيادة الشعب وحكومة الشعب . وهو يرى أن الحرية هى أسمى ما يمكن أن يتمتع به شعب حر ، ولكنه يحمل على تلك الديمقراطية البرجوازية التى تستغل الحكم لمصالحها ومنافعها . ومن رأيه أن الجماعة المنظمة التى تعترف بعجزها عن تهيئة الأعمال للعاطلين وفتح الأسواق للأعمال والتجارة ، ومحاربة الصناعات المحتكرة ، وتخفيض مستوى العيش ؛ مثل هذه الجماعة أو الحكومة ليست جديرة فى نظره بالبقاء والحياة ، وليست بالأخص جديرة لأن تخاصم وتناضل أنواع الحكم الأخرى

ويشرح الكاتب نظرياته بأمثلة عملية من حوادث التاريخ الحديث والمعاصر ؛ ويرى فى المسألة الاسبانية ومسألة الصين أعظم ميدان لاصطدام القوتين الخصيمتين ، ويحمل بشدة على سياسة الدول الديمقراطية فى هاتين المسألتين ، ويرى فيها دلائل الاضطراب والضعف . وفى اعتقاده أنه ليس ثمت ما يحمل الدول الديموقراطية على كل هذه التقديرات الخطيرة التى ترتبها على مقابلة الهجوم بمثله ، وإنه قد يكون الخطر فى الميدان الدولى أقل بكثير إذا قامت الدول الديموقراطية بعمل ما مما لو استمرت فى موقفها السلبى الحاضر

روح العصر فى معرض باريس

كانت المعارض إلى عهد قريب تعنى بإبراز البهارج التى تلفت الأنظار ، وتثير إعجاب البسطاء ، وإن عنيت أحياناً بعرض مدى التقدم الذهنى فى أمة من الأمم . ففى المعرض البريطانى الذى أقيم عام ١٨٥١ أنشىء هذا البيت العظيم الجليل الذي أطلق عليه « القصر البلورى » ، والذى دمره الحريق أخيراً وكان دائماً آية ذلك المعرض ، وحامل ذكراه للأجيال ؛ وفى معرض باريس الذي أقيم عام ١٨٨٩ أنشىء برج إيفل ، وكانت النزعة التى تمخض عنها نزعة فرعونية كالتى حدت بزوسر وخوفو وخفرع إلى بناء الأهرام ، وإلا فقد كان الفولاذ الذى استخدم فى بناء هذا البرج كافياً لبناء أسطول صغير يدفع بعض الأذى عن فرنسا . أما فى معرض باريس الأخير (١٩٣٧) فقد تجلى روح العصر ، وتناسى العارضون بعض هذه المنجهية التى كانت تجعلهم يبنون القصر البلورى ويقيمون برج إيفل . هذا وإن يكن المعرض الأخير يفوق كل المعارض السابقة رونقاً وعظمة وجلالا . وأحسن ما يشهد لهذا المعرض بتفوق روح العصر هذه الدار العظيمة التى أقيمت فى المعرض ، والتى أطلق عليها (دار الاستكشاف) والمراد الاستكشاف العلمى الذى تدين له الحضارة الحديثة بكل ما تتيه به على غابر القرون . فقد حشدت فى هذه الدار الهائلة جميع الاستكشافات التى أدت إلى تقديم الانسانية ، وخطت بالعالم أشواطاً بعيدة نحو الكمال . وهى مع ذلك لم تهمل الاستكشافات القديمة التى كانت سبباً مباشراً أو غير مباشر لما أبدعته القرائح الحديثة ... فبينا ترى جهازاً أوتوماتيكيا (آليا) يكلمك ويشرح لك نظريات نيوتن وجاليليو فى الحركة والجاذبية إذا بك تنظر إلى جهاز آخر يوضح لك كيف تستنبط الكهرباء بأبسط الوسائل ، وكيف استخدمت الكهرباء بعد الاهتداء إليها فى الاضاءة وتحريك الآلات ونقل الصوت باللاسلكى والصور بالتلفزيون ... وتسير بضع خطوات فترى فوقك العالم السماوى بأكمله ، وقد جرت فيه كل النجوم والكواكب ، ووضحت فيه سدم المجرة ، وهكذا تعرف من الفلك ما كان يعوزك أن تعرفه فى أعوام ... ثم تنتقل فترى معهداً

للحياة (Biology) يضع بين يديك لامارك وهكسلي وداروين ، ويريك كيف تدرجت الحياة من الذر إلى هذا العالم الحافل بعجائب المخلوقات ... وأنت فيما بين هذا تشهد التجارب المدهشة لاثبات قوانين مندل في الوراثة واستكشافات باستير وكوخ في عوالم المكروب ... وقل مثل ذلك في كل ما أفاد العلم في البر والبحر وتحت الماء وفي أجواز الفضاء ... وقد تكلفت هذه الدار ملايين الفرنكات ، على أنها عوضت ما أنفق عليها ، إذ قد زارها حسب إحصائية المعرض في المدة من ٢٥ مايو إلى ٧ أكتوبر الماضي ١٫٦٠٠٫٠٣٨ زائراً دفعوا جميعاً رسوم الدخول . وزارها غير هؤلاء ٤٠٠٫٠٠٠ طالب وعالم وأستاذ ، من جميع أنحاء الأرض ، وعقدت فيها المؤتمرات العلمية الطريفة لتبادل الآراء ومناقشة أحدث المستكشفات

ألف ليلة بالانجليزية

ما زال كتاب ألف ليلة وليلة موضع إعجاب الأمم الأوربية عامة والانجليزية خاصة ، ولقد ظهرت ترجمات كثيرة لبعض قصص الكتاب في لغات شتى ، ولكنه لم يترجم ترجمة كاملة إلا هذا العام ، وقد ظهرت الترجمة بالانجليزية في أربعة أجزاء فخمة تعرض للبيع بأربعة جنيهات وربع الجنيه ، وهو ثمن يبهرنا نحن الشرقيين ويزعج جيوبنا ، ولكنه يدل على الروح العالي الذي يتقبل به الانجليز كنوز المؤلفات الرفيعة . ومترجم ألف ليلة هو الأديب الانجليزي الكبير پويس ماثر ، وقد وضع نصب عينيه وهو يترجم الكتاب أن يتحاشى العيوب التي ظهرت في ترجمة جالان الفرنسية (١٧٠٤ — ١٧١٢) وترجمة لينز الانجليزية (١٨٤٠ م) وترجمة سير ريتشارد برتون (١٨٨٠ م) — ولم يفته أن ينتفع بمحاسن الترجمة الفرنسية التي وضعها الدكتور ج . ماردروس (١٨٩٩) وقد قلد هذه الترجمة في بعض صورها فنقل الأشعار العربية إلى شعر انجليزي رائع ، وإذا عرفنا أن المترجم شاعر فذ علمنا إلى أي حد وفق في نقل أشعار ألف ليلة

الى الأخ السوداني

كنت قادماً من بيروت . فلم أكد أنزل من السيارة حتى استقبلني من كان في (مكتبة عرفة) وهي مجمع الأدباء في دمشق ، بكلمتك الرقيقة الصادقة ونصبوا من أنفسهم محامين عنك ، فوجهوا إليّ أمر العتاب ، وأشد الملام ، حتى اضطررت إلى الاعتراف ، لأني لم أجد لنفسي عذراً ، وقديماً قالوا الاعتراف يذهب الاقتراف

أي والله يا أخي إننا إخوة وإن اختلفت الألوان ، وتباينت الديار ، وحّد بيننا الشرق ، ووحّدت بيننا الآلام والآمال ، وآخى بيننا الله من فوق سماواته ، قال الله تعالى : (إنما المؤمنون إخوة) . وللسودان والله على سواد بشرتهم ، أطهر أفئدة ، وأسمى نفوساً ، وأدنى إلى الفضيلة والحق من كثير من بيض الجلود . وما أردت والله إلا أولئك السود من سكان أفريقية الوسطى ، وكانت كلمة أسرعت إلى اللسان ، قبل أن يتدبرها الجنان . فمعذرة يا أخي وشكراً لك على حسن ظنك بي ، والسلام عليك ورحمة الله

من أخيك : علي الطنطاوي

الكومنترن أو الشيوعية الدولية

ترددت كلمة الكومنترن Comintern هذه الأيام بمناسبة الاتفاق الثلاثي الذي تم بين ألمانيا وإيطاليا ثم اليابان لمقاومة الشيوعية — وكثير من القراء لا يعرفون ما هو الكومنترن الذي هو في الحقيقة اسم منحوت من كلمتي Communist أي شيوعية International أي دولية ، فالكومنترن هي الشيوعية الدولية وهو اسم جديد للدولية الثالثة التي تحكم روسيا الآن ... والمدهش أن روسيا اليوم لا أثر فيها لتعاليم الكومنترن الأصلية التي وضعها الزعيم لينين ، ولكن الحكومة الروسية تدأب على نشر هذه التعاليم خارج حدودها لأنها ألد أعداء السلام العالمي

تصويب

وقع في مقال « مصرع شجرة الدر » الذي نشر في العدد الماضي تحريف في علمين أولهما « ثوران شاه» وصوابه توران شاه والثاني الخليفة المتعمم العباسي وصوابه المستعصم بالله

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧